

رواية

هذه خاتمة مسلسل

أحمد إبراهيم الفقيه

رواية

هذه ترجمة ملقة

أحمد إبراهيم الفقيه

هذه تخوم مملكتي

زمن مضى وزمن آخر لا يأتى.

وبين الزمن الهارب والزمن الذى يرفض المجرى
منطقة صفراء. مفازة صحراوية يغطيها الحصى وتحرفها
شمس الظهيرة. وأنا نائم في سريرى يافنى الظلام أرقب
نفسى أركض وسط الخلاء الأحق ظل طائر أسود يعبر
الفضاء فوق رأسي، أريد أن أحتمى به من شراسة الشمس
التي تشتعل في قبة الكون. نائم في غرفة نومى، ولكن الطائر
يقودنى إلى حلقات من النساء والرجال الذين يرقصون فوق
الرمل. بشر ينصبون خيامهم ويقيمون عرساً في الصحراء.
يضربون الطبل ويعزفون موسيقى القرب المصنوعة من
جلود سوداء. نساء يزغرن ورجال يطلقون صيحات
الابتهاج. أفرح بانبعاثهم المفاجئ وسط العراء. أتقلب في
سريرى وأركض نحوهم أصافحهم وأعانقهم فاكتشف أنهم
جميعاً بشر من دخان. يعود شطري الراكض في الضوء إلى
شطري النائم في الظلام. أستيقظ مملوءاً بالفزع وعنف
الشمس. أمد يدى لأبحث عن كأس الماء، وأرى أثاء تمددى

مسهداً فوق الفراش أن طائر الصحراء قد تطير ريشه في الهواء وتحول إلى عدد لا يحصى من الطيور السوداء تغطي سقف الغرفة وترف بأجنحتها الموحشة قريباً من وجهي. أطلق صرخة مكتومة لأنني أدرك لحظتها أن المنتحرين من نساء ورجال شاهدوا قبل قتل أنفسهم هذه الطيور السوداء. أحاول أن أدفعها عنى وأغمض عينى خوفاً من منظرها ولكنها تأبى أن تخنقني. أضع الوسادة فوق وجهي، أحبط بها أذنى، أقلب شمالي ويميني، أتوجع وأتألم، تستيقظ المرأة التي تناه بجوارى:

- إنك منذ أسبوع لا تناه.

تقوم من فراشها تبحث عن الدواء. أتناول في صمت الجبة المهدئة التي تأبى بها، دون أن أقوى على النوم. أترك السرير وأهرب إلى شرفة المطبخ المطلة على البحر. أجلس خارج الحلم أتأمل دوائر العتمة والفراغ. يضرب وجهي هواء البحر وتلمع فضة زبده تحت ضوء النجوم. أسمع هتافاً عذباً يتتصاعد من قلب البحر يناديني، وتمر لحظة فصيرة أشعر خلالها وكأن كائنات البحر جاءت تطرق بابي. أفتح الباب فأرى أطياف بشر لهم شفافية الماء. أترك البيت غير

عايى بنداء امرأى و هي تسأى من غرفة نومها لماذا فتحت الباب. انها لا تسمع طرقاً ولا هنافاً ولا ترى الكائنات التي جاءت تعبى الطريق و تصل بى إلى الشاطئ. أقف مبهوراً أرقب البحر. ثمة مدينة لها قباب من ذهب تتلألأ تحت الماء. يدخل البشر الذين لهم شفافية الماء إلى الماء و يشيرون لي أن أتبعهم. مسحوراً بلون الذهب الذائب في ثج البحر أخوض الماء باتجاه المدينة المصيئه، أرتعش نشوة و افعلاً و أنا أرى أمواج ضوئها تسحبنى إليها، وأسمع غناء كائناتها مبهجاً فاتنا يناديني. أتوغل متحداً بالماء و مغموراً بالفرح، ولكن أيداد كثيرة تأتى و تتنزعنى من أمواج الضوء والماء والبهجة، و تمنعنى من السفر إلى مدينة القباب الذهبية و الطرب الذى يئمل القلب. تختفى المدينة المسحورة و يعود البحر كتلة من المياه السوداء. يأخذوننى محمولاً بين الأيدي إلى الفراش. و مثقلًا بالبرد والرطوبة و رائحة أعشاب البحر أندس تحت اللحاف أسعى و أرتجف. أجد أن الطيور السوداء قد اختفت فأحس بالامتنان لهذا المرض العضوى الذى أزال هذه الليلة أقسام الروح. أدفن رأسي في ليونة المخدة و أنا أسمعهم يتبادلون كلاماً عن مرضى و حاجتى إلى العلاج في

المستشفيات. أسمع زوجتى تشكر الجيران وتعذر عن ازعاجهم. تقزعنى فكرة أن أجد نفسي ذات يوم ملقى مع المجانين في مصحات الأمراض العقلية وأدرك أن الذهاب إلى البحر كان حماقة وجنوناً. أستيقظ في الصباح أكثر انتعاشاً وعافية. غادرتى حالة الصمت التي رافقتى عدة أيام وأعادت لى محاولة الانتحار شيئاً من عقلى الغائب. وهارباً من المرض واحتمال الحجز في المستشفيات أرتدى بذلتى وأغادر بيته لأعود الاتصال بالدنيا. أذهب إلى الجامعة وأتجول في الأسواق وأقابل الناس. أضع شمعاً على وجهى أمنع به ظهور مشاعر الخوف والاعباء وأسدّ به الثقوب السوداء التي تملأ الروح. أرسم بالشمع وجهها يضحك ويتكلم ويلقى الدروس. وجهاً جديداً أضلل به أشباح الليل والنهار. ولكن الشمع لا يقاوم طويلاً ضراوة الشمس. تعاودنى مشاعر الخوف من الناس عندما أراهم يقتلونى بنظراتهم المشنوفة لأنهم شاهدوا شمعاً يسيل على وجهى، فأكره أن أراهم أو ألتقي بعيونهم الأسمانية. أعزز لهم وأمكث طوال اليوم في دارى. تراني فاطمة أمتنع عن الذهاب إلى العمل فتأخذ هي الأخرى إجازة من التدريس وتبقى لتمريضى، تحاول أن

تخرجنى من حالة الصمت والشروع فلا أعباً بالرد عليها. يوقظنى أثناء الليل طرق على باب البيت، وأنهض لافتتاح الباب فأجد أنها قد أحكمت إقفاله وخبأت المفتاح لكي لا أمضى مسحوراً خلف كائنات الظلام. يأتي أخى في اليوم التالى ليسألنى مرة أخرى أن أذهب معه إلى عيادة الطبيب النفسى فلا أدرى ما أقول، كنت أرفض الاستجابة له، ولكن حدث النزول إلى البحر أفرز عنى وجعلنى أدرك خطورة حالي. أذهب معه وأجلس أمام الطبيب الذى يبحث في طفولتى عن شيء يجعله سبباً لمرضى. أعرف أن طفولتى بريئة مما ينسبه إليها ويدينها به، وأعرف أنه يرتدى معطفه الأبيض متتكراً في ثياب هذه المهنة بينما هو عميل سرى لكل أعراف المجتمع وقوانينه الظالمه التى جاء الآن يبرئ ساحتها، متواطئ مع كل المؤسسات الوحشية التى تدير شؤون الكره الأرضية. لا أقول شيئاً يغضبه لكي لا يأمر بحجزى داخل أسوار عيادته النفسية. ابتسم له شاكراً وهو يعطينى علاجاً ويسألنى أن أعود مرة كل أسبوع إلى زيارته. أتناول العلاج ليوم أو يومين ثم أتركه وأرفض أن أعود إلى عيادته. ويرانى أخى نافراً من الأطباء فيقترح هذه المرة

الذهاب إلى فقيه ذاع صيته وعالج أناساً كثيرين مثلـى، فهذه أمراض لا يعرف أسرارها إلا أهل الله من أمثال هذا الفقيه. إن كائناً من هذه الكائنات الخفية المجهولة التي تعيش معنا دون أن نراها قد انتقل من شقوق إحدى الخرابات ليسكن جسمـى، وسيكون هذا الفقيه قادرـاً على إحرافه بالأوراد والأحجبـة والطلاسم السليمانية.

أرفض أن أذهب معه إلى الفقهاء ولكنـى أستسلم بلا مبالغة لما يأتي عن طريقـهم من علاج. تعلـق زوجـتـى حزـزاً في عنقـى فلا اعـتـرـضـ، وتسقـنـى شـرـابـاً مـمزـوجـاً بـصـمـغـ كتابـاتـهم فـأشـرـبـهـ كـارـهـاـ مـشـمـئـزاـًـ.ـ أـعـوـدـ طـبـيعـياـ لـمـدـةـ أـسـبـوـعـينـ أوـ أـكـثـرـ وـيـرـىـ أـخـىـ هـذـهـ النـتـائـجـ فـيـسـرـفـ فـيـ إـدـاءـ إـعـجـابـهـ بـبـرـاعـةـ الفـقـهـاءـ،ـ وـلـكـنـ المـرـضـ يـعـوـدـنـىـ بـعـدـ ذـلـكـ.ـ اـعـتـزـلـ النـاسـ وـأـعـتـصـمـ بـبـالـبـيـتـ،ـ يـلـفـنـىـ الـغـمـمـ الـأـبـيـضـ نـهـارـاـ وـتـزـورـنـىـ أـشـاءـ الـلـيـلـ الطـيـورـ السـوـدـاءـ،ـ وـأـجـدـهـمـ فـيـ جـامـعـةـ يـأـخـذـونـ مـنـ جـوـلـ الـحـصـصـ وـيـقـطـعـونـ عـلـوـةـ التـدـرـيـسـ وـيـجـعـلـونـ مـنـ مـحـاـضـرـاـ اـحـتـيـاطـيـاـ لـأـهـمـيـةـ لـحـضـورـهـ أـوـ غـيـابـهـ.ـ أـهـبـ فـيـ حـالـاتـ صـحـوـىـ إـلـىـ هـنـاكـ فـلـأـجـدـ عـمـلاـ،ـ وـأـعـوـدـ إـلـىـ الـبـيـتـ بـعـدـ أـنـ تـكـونـ فـاطـمـةـ قـدـ خـرـجـتـ إـلـىـ مـدـرـسـتـهـ الـابـدـائـيـةـ،ـ

فأ فقدها وهى غائبة بينما أضجر منها عندما ألقاها بجوارى.
مضى على زواجنا أكثر من ثلاثة سنوات دون إنجاب. لم
أجد ذلك شيئاً يستحق الفلق، ولم يكن يعنينى كثيراً أن تكون
فاطمة عاقراً أو ولوداً، ولكنها تعتقد بأن طفلاً يملاً فراغ
البيت سوف يطرد فور مجيئه الأسباب التى تختبئ في الظلام
وتهاجمنى أثناء الليل. رأيتها تبكي وتضع اللوم على نفسها
فادعىـت أمامها بأننى سبب العقم وليسـت هي.

ما إن أكملت تأثيث هذه الشقة حتى بدأت البحث عن
امرأة أكمل بها طقوس انتمائى إلى هذا المجتمع. جاء زميل
بقسم اللغة الإنجليزية يقول بأن لزوجته اختاً تأخر بها العمر
قليلـاً دون زواج، معلمة بالمدارس الابتدائية على مشارف
الثلاثين ماتت أمها وتزوج والدها بامرأة أخرى فلم يعد لها
أهل يزعجونـى بتدخلـاتـهم. ذهبت إلى بيته لألقـىـ بها. تـأـملـتهاـ
وـهـىـ تـجـلـسـ إـلـىـ مـائـدةـ الطـعـامـ قـبـالـتـىـ، وـضـعـتـ عـيـنـيـهاـ فـيـ
الـصـحـنـ وـلـكـنـ بـصـرـىـ لـمـ يـغـادـرـهاـ. أـعـجـبـنـىـ صـدـرـهاـ وـفـمـهاـ
فـتـغـاضـيـتـ عنـ قـامـتـهاـ القـصـيرـةـ وـتـرـكـ عـرـوـضـ الزـوـاجـ
الـأـخـرـىـ وـاقـرـنـتـ بـهـاـ. لـمـ أـشـغـلـ بـالـبـحـثـ عـنـ زـوـاجـ يـأـتـىـ عـنـ
طـرـيقـ الـحـبـ فـيـ مـدـيـنـةـ أـخـلـقـتـ شـبـابـيـكـهاـ دـوـنـىـ وـخـبـأـتـ مـذـ

أعوام الصبا الفتاة التي أحببتها في إحدى الصناديق فما عاد بإمكانى الاهتداء إليها. ولم أفعل ما يفعله هؤلاء الذين يصنعون حباً من نظرة خاطفة ثم يتوهمنون كذباً أنهم تزوجوا حبيباتهم، ويكتشفون بعد أن تتبخر الأوهام أنهم تزوجوا الخيبة والمرارة. أردته منذ البداية زواجاً تقليدياً خالياً من الأوهام والأكاذيب. ولهذا لم أنتظر من هذه المرأة أن تكون وعداً وبشارة وسحائب عامرة بأمطار الفرح والدهشة. ولم تفاجئني بشيء جديد عندما انتقلت للحياة معى. امرأة وديعة طيبة، تجيد طهي الأطباق الشعبية وتضع إرادتها تحت إرادة الرجل الذي تزوجها، وفيه للتقاليد العريقة التي عامل بها المجتمع نساءه جيلاً وراء جيل، راضية بعالمها الصغير الذي لا يتجاوز مجتمع المدرسة التي تذهب إليها وشراء حوائج البيت من متجر قريب وحديث الجارات والزائرات عن أزمة اللحوم وندرة البصل والحمص. تستسلم في الفراش خجولة حبيبة كأنها تمارس إثماً. مضى العام الثالث دون إنجاب فلجاجات إلى تلك الحيلة لأطرد الهم من قلبها وأحمل آثامها بالنيابة عنها. وخلال هذه السنوات الثلاث حاولت أن أحافظ على درجة من التواصل معها ومع الناس الذين حولى.

صممت بإرادة واعية أن أستجيب لكل الشروط التي تؤكـد
انتمائـي إلى مجـتمع العـائلـة الكـبـيرـة التي تـتـنـظـر منـ أـبـنـائـهـاـ
الـطـاعـةـ وـالـوـلـاءـ. وـلـأـدـرـىـ ماـ الـذـىـ حدـثـ بـعـدـ ذـلـكـ حتـىـ بدـأـتـ
أـقـدـامـيـ تـسـوـخـ فـيـ الـأـرـضـ، وـيـتـحـولـ النـوـمـ إـلـىـ مـفـازـةـ رـمـلـيـةـ
تـسـكـنـهـاـ الـأـشـبـاحـ وـتـحـرـقـهـاـ الشـمـسـ. وـلـأـعـرـفـ مـنـ أـىـ الشـقـقـ
أـبـتـقـتـ هـذـهـ الـأـجـنـحةـ السـوـدـاءـ تـغـطـيـنـيـ وـتـعـطـيـ سـقـفـ الـكـوـنـ،
وـلـمـاـ تـأـتـىـ كـانـتـ الـلـيـلـ تـنـطـرـقـ بـابـىـ دـوـنـ بـقـيـةـ الـأـبـوـابـ. وـلـمـ
أـعـدـ أـرـيدـ شـيـئـاـ سـوـىـ أـنـ أـرـحـلـ إـلـىـ مـكـانـ غـيـرـ هـذـاـ الـمـكـانـ
وـزـمـانـ غـيـرـ هـذـاـ الزـمـانـ، أـحـمـلـ اـسـمـاـ غـيـرـ اـسـمـيـ وـوـجـهـاـ غـيـرـ
وـجـهـيـ وـأـرـىـ وـجـوـهـاـ غـيـرـ هـذـهـ الـوـجـوـهـ وـبـشـرـاـ غـيـرـ هـؤـلـاءـ
الـبـشـرـ.

طـفـتـ وـأـنـاـ بـمـفـرـدـيـ غـرـفـ الـبـيـتـ أـبـحـثـ عـنـ شـيـءـ أـشـغـلـ
بـهـ نـفـسـيـ. وـقـفـتـ مـتـهـيـاـ أـمـامـ رـفـ الـكـتـبـ الـذـىـ يـحـمـلـ مـجـلـدـاتـ
أـلـفـ لـيـلـةـ وـلـيـلـةـ. أـضـنـانـيـ الـصـرـاعـ مـعـ هـذـهـ الـأـسـطـورـةـ وـسـعـيـتـ
جـاهـداـ لـأـنـ أـتـحـرـرـ مـنـ سـطـوـتـهاـ وـنـفـوـذـهاـ فـهـلـ مـاـ زـلـتـ أـنـقـادـيـ
الـوـقـوـعـ فـيـ أـسـرـهـاـ وـأـخـشـىـ سـحـرـهـاـ وـتـأـثـيرـهـاـ عـلـىـ حـيـاتـيـ؟ـ بـداـ
لـىـ مـضـحـكـاـ أـنـ أـطـرـحـ تـسـاؤـلـاـ مـثـلـ هـذـاـ. فـهـاـ أـنـاـ أـحـنـ إـلـىـ لـحـظـةـ
مـنـ تـلـكـ الـلـحـظـاتـ الـتـىـ كـنـتـ أـهـرـبـ مـنـهـاـ. وـلـكـ مـنـ أـيـنـ لـأـفـ

ليلة وليلة أن تحقق لى عالماً يشبه عالمها في هذه البيئة التالية
التي حافظت على عفتها وتحصنت ببؤسها وعقمها ومنت
نفسها عطاءً أبداً لرياح الصحراء. لقد استقررت بي هذه
الأسطورة في غربتى وداهمتى بأجواءها السحرية وسط بيئه
تخلت عن حكمة المجتمعات البدوية التي تعادى بهجة الحياة
الفنانية وانهمكت في مغامرة الاحتفال بالذات، تفرح وتغنى
وترقص على أصوات قناديل القلب.

مدت يدى إلى الجزء الأول ضاحكاً كأنى أتحدى
كائناته الوهمية أن تفعل معى شيئاً يقهر ببداء الروح والقلب.
وخرجت بالكتاب إلى الشرفة لأنقى بشهرزاد في أول
حكاياتها عن التاجر الذى أكل نمرة ورمى بالنواة فإذا
بعفريت طويل القامة يشهر سيفاً فوق رأسه ويقول: «قم حتى
أقتلك كما قتلت ولدى بهذه النواة». ويتحول عمل بسيط تافه
بريء مثل إلقاء نواة في الخلاء إلى جريمة يستحق صاحبها
عقوبة الموت. وينجس بعد ذلك ينبوغ الحكايات التي تتوالد
من بعضها البعض مثل صندوق العجائب، ويأتى الشيخ الذى يجر
يجر غزالته والآخر الذى يجر بغلته والثالث الذى يجر
كلبته، وجميعها كائنات بشرية مسخت بهائم وحيوانات. من

قال ان شهرزاد تتحدث عن عالم أسطوري ولا تتحدث عن هذا العالم المعاصر الذى التقى كل يوم بكتاباته الممسوحة وسيوفه المشهورة ضد كل من تعف عن أكل النواة ورمى بها إلى الأرض.

- قم حتى أقتلك.

لن أقرأ الكتاب فقط، بل سأعيد دراسته وكتابة بحث عنه. لن أبحث هذه المرة عن الجنس والعنف وقصص التسويق والإثارة، لن أبحث عن أخبار العاشقين وأغاني الجوارى خلف الخدور. ولن أستحضر شيئاً مبهجاً من عوالم اللعب والمغامرة، لأننى لا أملك مزاجاً لذلك. سأبحث عن أكثر جوانبها رعباً وأجعلها موضوعاً لمحاضرة أشارك بها في موسم المحاضرات بالنادى الأدبى. سأبحث عن قصصيا المسخ والتشويه والموت والانتحار وكيف عالجتها قصص شهرزاد لعلها تضيء شيئاً من محنتى.

- قم حتى أقتلك.

سأكتب عن هذا القتل وهذا السيف الذى ظل معلقاً فوق عنقها يدفعها إلى سرد الحكايات وتوليدها الواحدة من رحم الأخرى بحثاً عن النجاة والانعتاق من الموت العبيث.

وسأكشف عن حيلتها عندما جاءت في أولى لياليها تهجو
شهريار في وجهه وتلبسه أردية هذا العفريت الذى يشهر
سيفاً للقتل فقاومه بقوة الحكاية وسطوتها وتعلن بذلك عن
مخططها الذى ستواجهه به شهية شهريار إلى القتل ورؤية دم
البكارة مختلطًا بدماء الأعناق المقطوعة.

أحضرت أوراقى وصرت أقرأ وأنقل ملاحظاتى. بدأت
من خلال فعل الكتابة أتحرر من كتابى وأستعيد ذكريات
الدهشة الأولى عندما التقى أثناء طفولتى بقصص الأطفال
المستوحاة من هذه الأسطورة. تنشر لى الحكايات بساطتها
السحرى فأنتقل من دروس الإملاء والحساب إلى عوالمها
الأسطورية. أطوف بمدائقها، وأتناول الطعام على موائد
ملوكها، وأرافق على باباً إلى مغارة الكنز أملاً منها جبوبي
بعقود اللؤلؤ والمرجان والياقوت، وأستخدم مصباح علاء
الدين ليأتى خادمه الجنى فائلاً:
- لبيك عبدك بين يديك.

فأصدر له أمرى بشنق جميع مدرسى الحساب وقواعد
اللغة وإشعال الحرائق في كل المدارس لكي أستيقظ في
صباح اليوم التالى فلا أحد مدرسة ولا مدرسين. كان

الاستغراق في عوالمها بديلاً لبؤس الواقع وهروباً منه،وها
هي تقدم لى اليوم ما كانت تقدمه لى عندما كنت طفلاً.

رأته زوجتي أعود إلى العمل والكتابة فأبلغت أهلها
وأهلها، وسمعوا في برنامج إذاعي خبراً عن المحاضرة،
فتوافدوا على البيت لتهنئتي، حتى الأخت الكبرى التي
تزوجت فقيهاً غاب بها في إحدى الواحات، جاءت لزيارتى
يوم تقديم المحاضرة. اكتشفت أن ملامحها صارت الآن تشبه
ملامح أمي، وأيقظت بحضورها حنيناً في نفسي إلى ذلك
العالم الذي غمرته مياه الزمان. تمنيت أن تبقى معنا ولكن
الفقيه الذي جاء بها أعادها مرة أخرى إلى صحرائه.

داهمتى رغبة لأن أزور البيت الذي شهد سنوات التكوين
الأولى عندما كانت أمي على قيد الحياة. وهازئاً من منطق
الطبيب الذي يقول بأن أمراضي جاءت من تلك المرحلة
قرررت الذهاب لزيارة بيتها القديم. مضت سنوات عديدة لم
أذهب خاللها إلى تلك الشوارع والبيوت التي انطفأت فيها
الحياة بعد أن هجرها الناس إلى العمائر الجديدة ومصاعد
الكهرباء. لم تكن هناك عاهات نفسية وإنما بحر وسماء
وبيوت تتكئ على بعضها البعض وأزقة تتشابك في عنق لا

ينتهى. هبطت إلى الشارع أبحث عن سيارتي فتذكرت أن أخي أخفاها عن بحجة إصلاحها، فهو لا يريدى أن أقودها قبل أن أتعافي من مرضي. أخذتى سيارة الأجرة إلى هناك وما أن وصلت إلى مداخل المدينة القديمة ورأيت البيوت التي تحول بعضها إلى أنقاض وظل بعضها الآخر يمتلئ بالشقوق، حتى أحسست بالوحشة تحط في صدرى وتبدد ما كان يغمرنى من إثارة وشوق وحنين. لا أستطيع أن أنسى كيف كانت هذه الأزمة عامرة بدكاكين العطرية، وصناديق الفاكهة والخضار التي تملأ الأرصفة، وما تعج به من رجال يرتدون الملابس الوطنية، ونساء يلتحفن بالأردية البيضاء، وأطفال يركضون ويلعبون، وباعة متوجلين ينادون على بضائعهم ويصنعون صخباً وضجيجاً يتواصل ليلاً ونهاراً. انطفأ الآن ذلك الضجيج وتحولت تلك البيوت والحوانيت والحمامات والكتايب إلى خرابات مهجورة لا تسكنها إلا الغيلان. وعندما صادفت في الطريق بيتاً أعادوا ترميمه وطلاء جدرانه وأسكنوا به إحدى العائلات أحسست بالآفة والأمان، وجاءت رائحة الطعام تزيل شيئاً من وحشة المكان. وصلت إلى الزفاف الذى أعرفه أكثر من أى موقع آخر في

هذه المدينة. كان زفافاً صغيراً مغلقاً يضم صفين من البيوت، ثلاثة في كل جهة وبيت سابع ينتهي عنده الزفاف ويقع في مواجهة المدخل هو بيتنا. بيت من طابقين وصحن كبير مفتوح لا سقف له إلا السماء. وثمانية غرف تتوزع بين الطابقين تتقاسمها ست عائلات، منها من اكتفي بغرفة واحدة في حين كان لنا غرفتان. كنت لا أرى الباب إلا مشرعاً على الدوام. يسلون خلفه ستارة من الخيش ويبقونه مفتوحاً طوال ساعات النهار. كان جيراننا في البيت يتغيرون، ولكن رجالاً يصنع الجرار اسمه أبو خطوة ظل مرافقاً لنا بأسرته، يصنع أباريقه وجراره بإحدى الغرف ويقفها فوق السطح. وكانت صاحبة البيت المحاذى لبيتنا امرأة مسنة اسمها الحاجة وردة، لم أعرف إلا بعد أن كبرت أنها تزوجت في صباها ضابطاً تركياً هرب أثناء الغزو الإيطالي وتركها وهي ما تزال بخضاب العرس، وانتقاماً منه فتحت بيته للترفية عن الإيطاليين. ثم هجرت هذه المهنة وحاجت إلى الكعبة واشترت هذا البيت الذي تؤجر غرفه مفروشة للعائلات القادمة من الريف، وعندها عرفت السر في أنها كانت دائماً تحفظ بزینتها كاملة وتصبغ شعرها بطلاء أسود وترتدى عطوراً لا

تعرفها النساء في حارتنا. أما البيت الذي يلتصق بيتنا من الناحية الأخرى فلم أعد أذكر منه إلا الغرفة الكبيرة التي تقع بدخل البيت. يقطنها فقيه يكتب الأحجية ويطرد الجن ويعالج النساء العقيمات هو الشيخ الصادق أبو الخيرات، وكانوا يسمونه يتحدث أحياناً مع نفسه فأشاعوا عنه أنه يخالى إحدى الجنيات وهي التي تساعده على قضاء حوائج الناس الذين يأتونه طلباً للعلاج. وكنت أذهب إلى غرفة الشيخ في المواسم والأعياد، أحمل له من بيتنا طعاماً لكي لا يبقى محروماً من طعام أهل الإنس الذي لن يلقاء عند أمرأته الجنية كما كان يقول أهلى.

وقفت أمام بيتنا واجماً. كان جزء كبير منه تهدم وتکدست حجارته تسد المدخل. أردت أن أسلق كوم الحجارة لأنفذ إلى داخل البيت وأرى الغرف التي لم تتهدم ولكنني تخليت عن المحاولة بعد أن زلت قدمي منذ أول حجر وطأته. كان الوقت قبل الغروب بقليل. وكان المكان موحشاً خالياً، لا أثر لإنسان يعيش أو يمرق من هناك. والبيوت كأنها اطلال مدينة دمرها الزلزال منذ ألف عام. جاعت الكآبة تعصر صدرى وتدفعنى إلى البكاء. أردت أن أهرب من

وطأة هذا المشهد، حاملاً معى حصاد الخيبة لزيارة البحث عن زمن تقوض وانتهى. ولكن رائحة بخور تتصاعد من مكان قريب أوقفتى ذاهلاً في مكاني. كانت رائحة شذية ذات عبير غريب أحسست به ينتفق في صدرى ويملاكي برعشة الانتشاء. أغمضت عين رافعاً رأسى، مستنشقاً هذا العبير الذى لا أذكر أتنى شمت عبيراً مثله. اكتشفت أن لرائحة الخور مصدراً هو الخرابة التى كان يسكنها الشيخ الصادق. اندفعت إليها مبهوراً. كان باب الخرابة مخلوعاً فدخلت إلى عتمة السقيفة المترفة وقد ازدادت الرائحة نفاذًا وقوه. وفقت أمام باب الغرفة التى يسكنها الشيخ. كانت الغرفة تحفظ ببابها الذى كان موارباً. دفعته قليلاً فأصدر الباب صريراً وكشف عن نور خافت يتسلق بلهاته الجدران. وفقت للحظة متهيئاً. لعلها شمعة أوقدها أحد المؤمنين بكرامات الشيخ وفأله وإحياء لذكراه. ولكن من أين جاء هذا البخور الذى يغمرنى بنشوطه المذهلة؟ دفعت الباب ودخلت، وما أن وضعت قدمى داخل الغرفة حتى تبدى لى الشيخ الصادق أبو الخيرات جالساً فوق سجادته تماماً كما تعودت أن أراه منذ ثلاثين عاماً مضت. لا أردى إذا ما كانت هذه اللحية الكثيفة

البيضاء، بيضاء ذلك الوقت، ولكن ملامحه ظلت مطابقة للصورة التي اختزنتها الذاكرة. هذه هي جلسته كما أذكرها وسجادته ذات الأهداب الذهبية ومبحة العقيق مضيئه بين أصابعه وكتب عنيقه سميكة بجواره وموقد النار يضوّع بالأبخرة كما أراه الآن. لعلني أحلم أو أتخيل. ولكنه هو بكل الطقوس التي كان يحيط بها نفسه. أطلقت السلام أريد أن أختبر فيما إذا كان الرجل حقيقة وليس مجرد طيف صنعته العتمة والأوهام. سمعت الرجل يرد السلام مشفوعاً برحمة الله وبركاته كما تعودت أن أسمعه أيام الطفولة. ذات الصوت الواهن الضعيف بنبراته الودودة الحنونة. كيف تراه حافظ على البقاء بهذه الهيئة طوال هذه العقود. لعله لم يكن ذلك الوقت شيئاً طاغياً في السن كما تصورته. أذهلتني المفاجأة فلم أدر ماذا أفعل أو ماذا أقول. وقف صامتاً وسط العتمة المضيئه، أرتوى بالعتبر وأنظر إلى موقد النار. رأني حائراً فدعاني بإشارة من يده إلى الجلوس مفسحاً لي مكاناً بجواره. جلست صامتاً أتابع خيوط الدخان التي تتصاعد من الأعشاب المحترقة.

- كان والدك رجل صلاح وقوى.

لم أكن أتوقع أن يعرفني وبهندى إلى الطفل الذى غاب عنه ثلاثة عاماً، تغيرت خلالها ملامحه وغمرت الظل وجشه وقلبه. واصل حديثه عن والدى قائلاً:
- إنه يذكرك دائماً ويرعى خطاك.

ها هو يتحدث بلهجة رجل عاد لتوه من العالم الآخر.
لعل أفضل شيء أفعله هو أن أهرب من حضرة هذا الرجل
الذى يتكلم لغة الأشباح. طمأنت نفسي قائلاً بأن هذه هي اللغة
التي يتحدث بها أمثاله من الفقهاء الذين يعشرون الأرواح
ويتصلون بعوالمها الخفية المجهولة، ولا بد أن الفضل في
بقائه محتفظاً بصفته رغم تقدم العمر إنما يعود لأطعمة أهل
الجن التي تقدمها له زوجته.

- سوف تثال بعون الله ما جئت من أجله.
ما الذى تراه يظن أننى جئت من أجله؟، لعله ظن
أننى جئت طالباً الاستعانة بأوراده وأعشابه وأصهاره من
أهل الجن على قضاء إحدى الحاجات. هل أقول له أنه ما كان
يخطر ببالى أن العمر قد امتد به إلى هذا اليوم؟. وأننى ما
جئت إلى هذا الزفاف إلا لأن قراءاتى في ألف ليلة وليلة
أيقظت في ذهنى عيق الذكريات فجئت لالقاء نظرة على هذا

العالم القديم المنذر. وعندما جاء عبر أعشابه يقودني إلى باب غرفته لم أكن أتخيل أتنى سألقاه جالساً فوق سجادته، تمثلاً حياً للماضي الذي سحقه أقدام الزمان، وكأن الجن أعارته أرواحها وأحالات سجادته إلى بساط سحري يرتفع فوق قوانين الفناء والاندثار. كنت قد تحررت من ذهول اللحظات الأولى فائلاً لنفسي بأنه لا غرابة أن أجد شيئاً عاصرته في طفولتي يمتد به العمر حتى الآن، فما أكثر الذين تتجاوز أعمارهم المائة بعشرات الأعوام. ولكنه جاء يعييني إلى حالة الذهول مرة أخرى عندما قال:

- سوف تشفى بإذن الله مما تعانيه، وما أمراض الروح إلا علامة الصدق ونقاء السريرة عندما تخرج للإنسان المريض آثامه وذنبه وكأنها طيور سوداء. فاتجه بقلبك كله إلى مصدر النور. إلى ذى الجلال والإكرام، منه الشفاء ومن عباده التوسل والدعاء.

كيف تراه عرف عنى كل ذلك؟ لعله أبصر علامات المرض في وجهي وأدرك من خبرته أن الطيور السوداء هي ما يراه مرضى النفوس من أمثالى، أو لعل أخي كان يعرف بوجوده وأخبره عنى وما تلك التمائم التى يزودنى بها إلا

تمائم كتبها هذا الشيخ. كل ذلك جائز. ثم انه رجل صاحب
أسرار وكرامات وقدرة على رؤية ومعرفة ما لا يراه
ويعرفه الآخرون، فلأسمع جيداً إلى ما يقول.

- هل نبدأ جلسة العلاج الآن؟

القى سؤاله دون أن ينتظر مني ردأ، فقد باشر من
فوره فراغة الأدعية والأوراد وإحراق مزيد من البخور. نعم،
لنببدأ جلسة العلاج الآن. هربت دائمأ من الذهاب مع أخي إلى
فقهائه، وهذا أنا أجد نفسي ودون أن أدرى في حضرة هذا
الفقيه الذى نجا من الطوفان. لماذا لا نبدأ الآن؟. إذا لم أفر
بالعلاج فلن أخسر شيئاً. انتقلت إلى الجلوس في مواجهة
الشيخ كما أراد. كان يقرأ الأوراد بلهجة منغومة حاولت أن
أتبعن شيئاً من كلماتها فلم أفلح. بدا لي أنه يستخدم لغة
مهجورة لم يعد يتكلمتها البشر. امتلأت الغرفة بدخان
الأعشاب المحترقة التي لها رائحة فردوس مفقود. أحسست
بالبخور يسرى مع الدم في بدنى، وامتلأت عيناي بالدخان فلم
أعد أرى شيئاً. سمعت الشيخ يتوقف عن ترتيل اوراده
السريانية ويسألنى بصوت كأنه قادم من السقف:

- ماذا ترى الآن؟

كان السؤال غريباً. حاولت أن أفتح عيني الممتلئتين بالخدر ولم أقل شيئاً. ماذا يمكنني أن أرى غير الشيخ وموقد ناره وجدران غرفته التي يغلفها الدخان.

- أغمض عينيك جيداً وقل لي ماذا ترى ؟

بدت المهمة أكثر يسراً طالما أنه لا يريني أن أفتح عيني. ولكن ما الذي يمكن أن يراه إنسان مغمض العينين. اتنى لا أرى سوى الظلام ولا أحس بشيء سوى هذا الدوار الذي تصيبني به رائحة البحور.

- ما الذي تراه ؟

- لا أرى شيئاً.

جاء صوته هذه المرة حاسماً، زاجراً:

- أصرف ذهني عن التفكير في أي شيء آخر.

- اتنى لا أفك في شيء.

إذن أغمض عينيك جيداً وحاول أن ترى. مرت لحظة صمت ثقيلة، صمت لا تكسره إلا هسسة الأعشاب التي تحترق في الموقد.

- لعلك ترى بقعة بيضاء.

توهمت مجازة له و هروباً من إلحاشه أتنى أرى نقطه
بيضاء وسط الظلام فلم أرد بالبني.

- سوف ترى كيف تصير البقعة البيضاء دائرة تتسع
وتتسع حتى لا ترى شيئاً سوى البياض.

لم أكن قد رأيت شيئاً ولكنني بإيحاء منه صرت أتخيل
أتنى أرى بقعة بيضاء تتسع حتى يصير الظلام فضاء ساطعاً
بالبياض.

- نعم إتنى أرى ذلك.

- أنظر الآن جيداً في الخلاء الذى أمامك.
كان الخلاء ينطرب أمامى أرضاً فاحلة جرداء لا نهاية
لها.

- حدق جيداً كى ترى قباب مدينة تلوح في الأفق.

- إتنى لا أرى شيئاً سوى الخلاء.

- انطلق إذن حتى تراها.

رأيت نفسي أعدو وسط بياده تحرقها الشمس ويعطيها
حصى يلمع تحت مسقط الضوء. بقى الشيخ صامتاً، وأنا
أركض دون أن أرى شيئاً يحد هذا الخلاء. بدأت أحس
بالتعب. جسمى يرشح عرقاً وأنا أعدو مقطوع الأنفاس.

- لقد تعبت.

- لا تتوقف عن المسير.

أو أصل المسير لاهثاً. العطش يحرق حلقي، والشمس تمطر حديداً مصهوراً فوق جسمى. أتحرر من سترتى وربطة عنقى وساعة معصمى فقد صار كل شيء ارتديه ثقيراً لا أقوى على حمله. أخلع القميص وأضعه فوق رأسي لأحتمى به من ضراوة الشمس وأبحث عن طائر ينبعق في الفضاء يحميني بظله، فلا أرى ظلاً إلا ظلى.

- أريد ماء.

- ستهتدى بعد قليل إلى الماء.

أردت أن أتوقف لأرتاح قليلاً ولكن الصوت جاء :
پسائلنى:

- انظر لكي ترى قباب المدينة وأسوارها.
كنت منهكاً. وكنت أستطيع أن أرى أطیاف قباب تلوح في البعيد.

- أطن أتنى أراها.

قال هاتقاً:

- أبشر فقد تحقق لمهمتك النجاح.

لا أريد نجاحاً سوى إعفائى من هذه المهمة التي
أضنتى بلا معنى. بدت المدينة بعيدة جداً، والسفر إليها
يقتضى جهداً لم أعد قادرًا عليه. ولكن أنساماً رطبة جاعت
من جهة المدينة أنشستى وساعدتى على مواصلة المسير.

- إنها بعيدة.

- لا تتهاون وأكمل ما بدأت.

- أريد أن أرتاح قليلاً.

قطع الحذاء وصارت الأحجار تجرح قدمى.

- واصل المسير وستصل قريباً بإذن الله.

بدا فعلاً أنى أقترب منها أو أن أسوار المدينة هي التي
تدنو منى حتى صارت أمامى. رأيت على باب المدينة حشدًا
كبيراً، أطیاف بشر تغطيهم أخيرة الشمس وتنعكس أشعتها
على حلٍ يرتدونها. جاء صوت الشيخ الصادق واضحًا،
وقربياً، كأنه يهمس في أنى.

- هل وصلت؟

قلت لاهثاً

- إنى أقترب.

- هل ترى أهل المدينة الذين يقفون عند الباب؟

- نعم

- اتجه إليهم وبادرهم بالسلام فهم ينتظرون مجيئك. منهاكاً، متعباً، أجر جسدي فوق الأرض، تحاملت على نفسى حتى وصلت إليهم. ألقيت عليهم التحية وارتيميت تحت أقدامهم فاقد الأنفاس. جاءوا لإسعافي يرشونى بالماء ويضعون قطرات منه في حلقى. بدأت شيئاً فشيئاً أستعيد قدرتى على التنفس بانتظام. أختفى صوت الشيخ الصادق ولم أعد أسمع إلا أصوات هؤلاء الناس الذين يصنعون دائرة حولى. ما زالوا أشباحاً لا أستطيع أن أميز ملامحهم لفروط ما عانيت من تعب. كلامهم ما زال غامضاً مضغوماً لا أعي منه شيئاً. أدركنى خوف مفاجئ وأنا أنتبه إلى أننى أرتمى وحيداً بين هؤلاء الأشباح. استجدت بالشيخ الصادق لكي ينقذنى فلم يسمعني. ناديته بصوت مرتفع عندما استعدت قدرتى على النطق. لم يأتى الرد، فعاودت النداء بحرقة وفزع. أريد أن تنتهى هذه اللعبة المضجرة وأن أترك هذا الوجود الكاذب وأعود إلى وجودى الحقيقى. ولكن الشيخ لا يجيب. أختفى وكأنه لم يكن منذ لحظة معى، كما أختفى وجودى الآخر الحقيقى وصرت الآن جزءاً من هذا العالم

الوهمي. تركني في الوهم ومضى. وبعدين أضناهما ضوء
الشمس وفكر أعياه القيط والعطش والسير الطويل في
الصحراء، تأملت الرجال الذين يحيطون بي. استطيع الان أن
أراهم بوضوح فلا يذكروني منظرهم إلا بالبشر الذين يسكنون
عوالم ألف ليلة وليلة. يرتدون عثائمهم وأرديتهم وسراويتهم
الواسعة ويتنطرون بأحزمة مرصعة بالجواهر ويضعون بها
خناجر لها مقابض من العاج وأغمدة مزينة بنفيس المعادن
وكانهم هبوا أنفسهم لمشهد احتفالى. كيف وصلت إلى هذه
المدينة التي تخلفت عن عصرها، أو كيف خرجت أنا من
العصر عائداً إليها، انتى لا أفهم شيئاً ولا أجد تفسيراً لهذا كله
إلا أنتى أرى حلماً. أغمضت عيني أطرد الحلم وأعدت
فتحهما لأراه قد اخترقي. ولكن الحلم لا يختفي وإنما يزداد
تأكيداً وحضوراً، فقد اقتربوا مني عندما رأونى أنهض من
رفادي وأستعيد مدراركى فائلين:

- نصر الله الأمير.

صاروا جمياً يرددون هذا الهاتف بفرح وحماس لم
أعرف عن أي أمير يتحدثون، فلعلهم رأوا أميرهم قادماً
لتدشين هذا الحفل، ولكنهم لا يلتقطون لأحد غيرى. لا بد أن

الأمر اختلط عليهم وظنوا أنني أمير من أمرائهم كان تائهاً
في الصحراء وعاد إليهم بعد سنوات من الغياب تبدلت خلالها
صورته، رأوني ذاهلاً، أنظر ببلاهة نحوهم غير قادر على
استيعاب ما يقولون، فتقدم أحدهم مني، وكان شيخاً ذا لحية
كبيرة مصبوغة بالحناء، يرتدي عمامه زرقاء وجبة من
الحرير الأبيض يحيطها نطاق مرصع بالمرجان، وأخبرني
بأنه تم تنصيبه منذ هذه اللحظة أميراً على هذه المدينة
وحاكماً على رقاب أهلها. قائلاً بأن أعراف المدينة تقضي
بأنه إذا مات الأمير خرج الناس إلى البوابة المفضية إلى
الصحراء ينتظرون أول رجل يأتي من هذا الطريق ليجعلوه
أمراً عليهم. كنت أعرف أن هذا لا يحدث إلا في الحكاية
التي تسردها شهرزاد، فكيف استطعت وفي غفلة من حراس
الزمان الذين يديرون الأفلاك بميقات ونظام، أن أنتقل من
خارج الحكاية إلى داخلها. كنت أريد أن أعبر لهذا الشيخ عن
دهشتي لهذا التطابق المستحيل بين زمن الأسطورة والزمن
الذى أنتمى إليه، ولكنه دون أن يطلب رأياً أو ينتظر مني
رفضاً أو قبولاً أمر بالمحفة التي نضدت فوقها الوسائل
والطنافس والرياش فوضعت أمامي، وجالساً فوق المحفة

المحمولة على الأعناق عبروا بى البوابة المفضية إلى شوراع المدينة وقد زينتها الأقواس والرسوم وأكاليل الورد، ومن حولى أطفال في ثياب مزخرفة يحملون سلالاً مليئة بأوراق الزهور والورود ينثرونها فوقى، وقد ازدحمت الطرقات بنساء ورجال يرقصون ويغدون ويعرفون الموسيقى، ويطلقون الهتافات وصيحات الابتهاج. أدخلوني إلى قصر تحف به الحدائق وأحواض الماء، وأنزلوني من المحفة وقدونى عبر ردهات القصر ذات السقوف العالية وأعمدة الرخام الكثيرة والأبسطة التى تغوص بها الأقدام، إلى غرفة حمام الأمير حيث قضيت وقتاً بين الأ婢ارة ومياه الأحواض الساخنة الممزوجة بالمسك والعنبر والمخلوطة بأوراق الترمس والياسمين. تعاونت خمس وصيفات على إلباسى حلة الحكم. قفطان من الحرير وفوقه عباءة مطرزة بخيوط الذهب والفضة ونطاق مرصع باللؤلؤ والياقوت الأحمر وعمامة من قماش مصبوغ بغار الذهب وسرابيل مشغولة بنقوش تتفق مع نقوش العباءة ومرکوب مزین بفصوص المرجان، وأنا أستسلم لهن دون كلام، مبهوراً بما أرى، تملأني الدهشة وتشل قدرتى على النطق، متيقناً بأننى

أعبر الآن فضاء الحلم وأنتظر في أية لحظة أن أخرج منه
لأسقط في غرفة الشيخ الصادق أبو الخيرات. فادونى بعد أن
رشوني بالعطور ودلكوا ملابسى بقوالب المسك إلى الديوان.
قاعة كبيرة بالغة الاتساع والبهاء تتدى منها ثريات كبيرة
مثلثة بقاديل الفضة، تزين سقوفها النقوش والتصاوير
وتغطى جرانها المرايا وأغلفة من خشب الأبنوس، تفنن
الرسامون في نقشها وأبدعوا في تصوير الرجال الذين
يحملون الرماح والسياه يصطادون بها الوعول والنمور وبقر
الوحش. أجلسوني فوق سدة الحكم التي يغطيها الديباج
والوسائد ومن حولها صفت الأرائك التي يجلس عليها عدد
من شيوخ المدينة وعائلاتهم. وقفوا عندما دخلت ونفخ
المنشدون الذين يصطفون أمام باب القاعة في أبوافهم عدة
مرات. جلست ذاهلاً لا أدرى ماذا يجب أن أفعل وماذا يمكن
أن أقول إذا دعوا في توجيه الأسئلة إلى عن الرحلة التي
قطعتها والبلاد التي جئت منها. بدأت مراسيم تنصيبى أميراً،
وجاء رجل بمجمرة يضوئ منها عبر يشبه العبير الذى
قادنى إلى غرفة الشيخ صادق، وصار يطوف بها حولى
ويقرأ الأدعية والأوراد. جاء بعده رجل يحمل إبريقاً مليئاً

بالزخارف والنمنمات، بدأ يرشنى بمائه طالباً من هذا الماء المقدس الذى شرب ضوء القمر لمدة سبعين دورة أن يباركنى، وجاء رجل ثالث يحمل طبقاً مفروشاً بالقطيفه الحمراء وفوقه جوهرة كبيرة مرصعة بفصوص الأحجار الكريمة لکى يرشقها في عمامتى. ثم وقف الشيخ ذو اللحية الحمراء الذى عرفت أن اسمه جلال الدين وسألنى أن أردد معه هذا القسم:

- أقسم بالله وشموسه وأقماره ونجومه وأرضه وسمائه وما حوت من كائنات أن أكون خادماً مخلصاً لمدينة عقد المرجان، وفيما لتقاليدها، وحارساً لنظامها، وأميناً على تراثها، وعاملأً على رفعتها، وإسعاد أهلها، وحامياً لترابها، والله على ما أقول شهيد. ردت معه القسم واقفاً. صفق الحاضرون وهتف المنشدون ثلاثة مرات:

- نصر الله الأمير.

انتهت مراسم التنصيب فبقي الرجل واقفاً لإلقاء خطاب باسم أهل المدينة. قال كلاماً غامضاً عن الشمس التى تشرب الماء والماء الذى يشرب الضوء والهواء ويتحول إلى رحىق يسرى في عروق الأرض وموارد حياة البشر والشجر

والكائنات الأخرى. وعن جوهر الماء وجدور الضوء وأمشاج الأرض وأمواج الهواء التي منها جبل الإنسان. تحدث عن بساتين السماء التي منها جتنا وفيها خلقنا وإليها نعود مرة أخرى، وعن خيط النور الذي بين السماء والأرض وبين الإنسان وموطنه الأصلي بين النجوم، وعن معنى سطوع القمر في قلب الليل وما يمارسه من تأثير على عقول وقلوب الكائنات البشرية فإلى هذا المعنى يجب أن تتجه الأنظار. ويسألنى إذا ما وعيت كلماته أن أمعن النظر في جوهر الإنسان الذي تزود بخبرة أجيال لا حصر لها سبقته إلى هذا العالم واستقاد من قدرته على تأمل النظام الذي يحكم الكون، واغترف الحكمة من الطير الذي يعرف منابع النور وحكمة الشجر الذي يعرف أسرار الفصول، وحكمة الأعشاب والينابيع والسحب والنجوم التي تصنع زهو الطبيعة وتمنح عطاءها للإنسان، فقد احتوى الجوهر الإنساني معنى الوجود وأسرار الطبيعة ونور الله وأمجاد الأرض والسماء، فإلى استكمال الجمال الداخلى يجب أن يسعى المرء لكي يكون جديراً بهذا الانتماء. ثم توجه بالحمد والشكر إلى الأقدار العليا التي هدتى إلى مدينة عقد المرجان، بعد رحلة مضنية

شافة وسط الصحراء، لأكون منذ اليوم الأمير الذى أقسم أن يحافظ على تراثها، ويرعى التواميس التى تحكمها، ويكمم المسيرة التى بدأها امراء قبله، جاءوا من ذات الطريق، و تعرضوا إلى نفس الامتحان، وقطعوا تلك المفازة الصحراوية الموحشة التى لا يقطعها إلا الأولياء من أحباب الله، فهى مفازة تسكنها جوارح الطير وتمتلئ بأودية الجن والعفاريت ومن نجا من المهالك فى أوديتها وأرضها ذات الشقوق والأخاديد وقاوم جوارح الطير التى تأكل الإنسان والحيوان لن ينجو من ثعابين تتفت ناراً، تسكن إحدى مناطقها، تقطع الطريق على العابرين بها. فلا يعبرها بعد كل هذه المهالك والأخطار إلا رجل من أصحاب الحظوة والكرامات. ولقد كافأ الله صبرهم خيراً عندما انتظروا عاماً كاملاً يخرجون فيه كل يوم إلى باب المدينة لقاء هذا الرجل الصالح الذى استطاع بمعجزة النور والإيمان أن يخترق هذا الطريق ليصبح أميراً جديراً بائتمانه على هذه المدينة.

تابعت كلماته بذهول واستغراب لأنى قطعت الطريق غافلاً عن كل هذه المهالك. حاولت وأنأ أستمع إليه أن أتبين الدين الذى يدينون به وتوسمت من ذكرهم لاسم الله أن ما

يعتقدونه قريب الصلة بالإسلام. ثم دعا الشيخ رجلاً فتياً
حاسر الرأس تدلّى جدائٍ شعره الطويل حول عنقه هو
ياقوت الشاعر، الذي نهض من مكانه وجاء يحمل ناياً.
عزف عزفًا جميلاً، شجياً، أشعّ في نفسي شيئاً من الهدوء
والسکينة وجعلني أحس بالالفة مع المكان. ترك بعد ذلك
العزف وانشد بعض التراثيل التي كان يقولها بأسلوب بين
الإلقاء والغناء. غنى عن دورة الأفلاك في الكون ودورة
النسخ في الشجر ودورة الفصول على مدار العام ودورة
الإنسان بين الميلاد والموت، فلا خلاص إلا بالحب ولا حب
يعادل حبه لتلك المرأة التي أوقعته في شباكها وسحرته
بجمال عينيها فلم يعد يرى صورة إلا صورتها ولا يرى
وجهًا إلا وجهها ولا يعرف نوراً يهتدى به في رحلة العمر
إلا النور القادر من تغّرها وجبينها.

وما أن أكمل غناءه حتى أضاء القاعة جمال امرأة
وقفت عند مدخلها تحف بها الوصيفات، وضعت في عنقها
عقداً به سبعة أقمار مصنوعة من الزمرد والياقوت، وفي
أذنيها قرطين من اللآلئ التي تشبه الوان العقد، وأرسلت
شعرها الأسود الطويل فوق كتفيها، مختلطًا بسواد الثوب

المرشوش بغار فضى فوسفورى. وقف الجميع تحية لها ووقفت معهم أعلق بصرى بها حتى اقتربت منى. ليس هذا الجمال غريباً عنى. لقد رأيته قبل اليوم وعشت معه إلى حد الالفة والحميمية. وما هذه المرأة إلا شهزاد كما عرفتها ورأيت صورتها معكوسة في مرايا الحلم والمخياله. بقامتها الفارعة المجيدة ووجهها المستدير المضيء، وسود عينيها اللتين تتفثان سحرهما الأسطوري الذى روض الوحش. وبرغم ما قاله الشيخ جلال الدين عندما قدمها لى، من أنها الأميرة نرجس القلوب ابنة أمير البلاد الراحل، التي تولت مهام والدها في فترة الانتظار والخروج اليومى إلى بوابة الصحراء والتي ستتولى مساعدتى في فهم العمل بالديوان الأميرى، فأننى لم أزدد إلا يقيناً بأنها شهزاد تستخد بسماً مستعاراً وتأتى لتكون دليلى في هذه الرحلة كما كانت دليلى في أرمنة مضت. سمعت ترحيباً منها ونلتقيت نظرة مشعة من عينيها فأحسست بالفرح رحيقاً مثلاً يسرى في جسمى. وجاءت بهجة حضورها وهي تجلس بجوارى لتندب كل احساس بالغرابة كان يساورنى. ليكن ما أراه حلماً أو خيالاً فأننى لا أريد الآن شيئاً سوى أن أقضى العمر عائشاً في

الحلم. تأملت الجالسين في القاعة فرأيتهم جميعاً ينظرون نحوى وينتظرون أن أقول شيئاً بعد أن انتهت مراسم تنصيبى. أغمضت عينى ورفعت رأسي إلى السقف أخاطب في سرى الشيخ الصادق أبو الخيرات طالباً أن ينجدنى ببعض الكلمات. فتحت عينى فوجدت رسوماً في السقف لنساء ورجال يحملون طاووساً ويضعون فوق وجوههم الأقنعة، فررت أنا أيضاً أن أرتدى القناع وأندمج في اللعبة، مستحضرأ ما فرأته في ألف ليلة وليلة عن مثل هذه المواقف. ليس الوقت وقت كشف عن هويتى الحقيقية وسرد للوقائع التي مرت بي والتي لم يكن من بينها مقابلة غيلان الصحراء والثعابين التي تتفت النار فهذا حديث لن يقبله الناس منى الآن. تذكرت أن أول ما يفعله الأمير بعد تنصيبه هو إصدار عفو عن المساجين. مبادرة خير يبدأ بها صفحة جديدة مع الناس. وبكلمات مقتضبة شكرت الحاضرين على حسن حفاوتهم وعبرت لهم عن اعتزازى بالثقة التي منحوها لي عندما جعلوني أميراً على مدinetهم دون معرفة سابقة بمن أكون، وأصدرت أولى قراراتى الأميرية فائلاً:

- ليطلق سراح كل من في الحبوس ابتهاجاً بهذا اليوم
الذى نريده أن يكون فاتحة عهد من المودة والصفاء بين
الناس.

رأيهم ينظرون إلى بعضهم بعضاً كأن ما قلته كلاماً
غريباً ليس من حق أن أقوله. مرت دقيقة صمت ثقيلة
استجدى بعدها بالأميرة لأعرف سر هذا الوجوم، فأخبرتني
بكلمات هامسة أن ليس في مدينة عقد المرجان سجون
ومسجونون. أدهشنى أمر هذه المدينة العجيبة التي قادنى
إليها الشيخ الصادق دون أن يزورنى بارشاداته عن نظامها
الذى لا يشبه الحكم في البلاد الأخرى، وقلت في خاطرى
لعلهم يقتلون المجرمين أو يقطعون أيديهم فلم تعد هناك حاجة
إلى سجن أو سجناء تتفق عليهم الدولة، أو لعل أميرهم
السابق لم يكن يعرف غير السحل عقوبة لأعدائه ومعارضيه،
سأتدبر في المستقبل أمر هذه التقاليد وسأبدأ عهدي بعمل
جليل هو بناء السجون. ولكن ماذا أستطيع أن أقول لهم الآن
؟، استعنت مرة أخرى بما ذكر من حديث ألف ليلة وليلة
وقلت بصوت حماسى:
- إذن فلتبطل المكوس لمدة عام كامل.

جازفت بتقديم هذه المكرمة التي قد تقر خزائن بيت المال فتعجز الدولة عن دفع أجور العاملين بها، وقلت ما فلتنه رغبة في تجاوز الحرج وانقاد ماء الوجه، ولكن ماء الوجه ظل مراكأً، لأنى وجدت القوم مرة أخرى ينظرون بذات الدهشة إلى بعضهم بعضاً. لا يعقل أن تكون هذه البلاد خالية من أنظمة المكوس وما يوازيها من ضرائب وجبايات، فهى من الأركان التي تقام عليها الدول منذ أن انتهى طور الحياة البدائية، ولكن الصوت الناعم جاء ليقول بذات اللهجة اللذيدة الهاجمة التي يلونها الحرج، أن المكوس نظام تركته هذه المدينة منذ أحقاب طويلة مضت. وكيف إذن تتفق الدولة على أجهزتها وكيف ينفق الأمير على حفلاته ونسائه ورجال قصره وأركان حكمه وأفراد وضباط جيشه وشرطته. لعلهم سبقو الفكر الاشتراكي العلماني إلى اكتشاف ملكية الدولة لوسائل الانتاج، فصار جميع الناس يخدمون لصالح الدولة، وانتهى بذلك دفع الضرائب والمكوس. وطالما أن جميع الناس يعملون أجراً للدولة فلأصرف لهم معاشاً اضافياً احتفالاً بهذا اليوم.

- ليصرف معاش شهر إضافي لكل العاملين في الدولة.

الصمت مرة أخرى ونطرات الاستغراب، ألا يتقاضى الناس أجوراً مقابل ما يقدمونه من أعمال للدولة. وإذا كنت أفهم ألا تكون هناك سجون أطلق سراح سجينها لأنهم يرمون بهم من فوق الأسوار حتى تدق أعناقهم، وأفهم ألا تكون هناك مكوس لأن جميع الناس صاروا أجراء لدى السلطة فأنني لا أفهم كيف لا تكون هناك معاشات للعاملين وجراءات للضباط ورجال القصر حتى إذا كان العمل يقوم على نظام السخرة فهو نظام يطبق على العبيد وليس على أهل الحكم والدولة. لم يكن هناك وقت لأن أسأل عن تقسير لهذه الاحتياج. أن الدولة هنا لا تعرف نظام المهايا والمرتبات وهذا كل شيء. لن يمضى هذا اليوم دون أن أصدر قراراً يؤكد مكانتي بينهم ويشيع الفرح بين بسطاء الناس الذين استقبلوني بالرقص والغناء، حتى لو كانوا بشرأ وهميين يسكنون مدينة وهمية لا وجود لها إلا في ذاكرة الشيخ الصادق. فلأمنح إذن هؤلاء الناس راحة من أعمالهم لمدة أسبوعين فلا كدح ولا عمل ولا شقاء ابتهاجاً بالعهد

الجديد، ولكن الأميرة تخبرني أن الناس هنا لا يعملون إلا وفق إرادتهم الحرة، فلا أحد يعمل لحساب أحد ولا يمتثل لأوامر أو رغبات أحد إلا نفسه. لا معنى لهذا كله، قلت لنفسي، إلا أنهم يعيشون بطالة دائمة، وطالما أن الأمر كذلك فلينصرف تفكيرى إلى الذين يطحنهم الفقر من هؤلاء العاطلين، ولتمنح الهبات والإعانات لكل المؤسأء والمحاجين. ومرة خامسة أو سادسة تميل نحوى نرجس القلوب لتفهمنى أننى أظلم هذه المدينة عندما أتحدث عن المؤسأء لأن جميع أهل البلاد يتساون في الانقاض بموارد أرضهم. صرت استشير الأميرة قبل أن أجازف بنقل مكارمى إلى الحاضرين فلا شك أن الحديث عن المؤس كان سيستفزهم أكثر مما استفزهم حديثى عن الحبوس والمكوس. سألتها مرة أخرى عن رأيها في أن تفتح خزائن بيت المال وتتوزع الجرایات من أموال الدولة على كل الناس، ولكن مدينة عقد المرجان كما أخبرتني الأميرة لا تعرف مالاً ولا يتعامل أهلها بالعملات والليرات الذهبية والفضية كما يفعل أهل البلاد الأخرى. قلت في خاطرى لعلها مدينة مسحورة لا يعرف أهلها احتياجاً ولا يتناولون طعاماً ولا شراباً سوى الهواء.

أليست هي مجرد وهم وخيال تصورته واقعاً وعاملته على هذا الأساس. كنت لا أزال غارقاً في حيرتى وحرجي أبحث عن مكرمة تؤسس لى مكانة بينهم وتنقق مع أطوار مدينتهم، عندما حان موعد الانتقال إلى قاعة السهر والطعام لينقذنى من هذا المأزق. انتقلنا إلى قاعة مدت بها أسمطة الأكل والشراب، و جاءت الخراف المشوية والمحشية باللوز والفستق والبندق والبرغل. كنت جائعاً فأكلت بشهادة، وكنت ظامئاً فشربت من دنان النبيذ بأكثر مما شرب الآخرون، رغبة في أن أجذب هذا الحرج الذى أحس به وأن أعاشر قوماً لم أعرفهم إلا منذ لحظات. انتهى الطعام وحان موعد الغناء والموسيقى وحلقات الرقص. اصطف المنشدون وضاربو الدفوف وعازفو المزامير والنایات وآلات العود والبزق استعداداً لبدء الاحتفال. وجاء الحكيم جلال الدين يخبرنى بأن تقاليدهم تحب أن يتزوج الرجل الغريب الذى ينصبونه أميراً، إحدى نساء مدينتهم كجزء من تأكيد انتماهه إليهم. لم أسأله إن كان هذا شرطاً من شروط الإمارة أو من الضروري أن يتم هذه الليلة لأنه ترك لى الخيار قائلاً أنهم يعتقدون ببركة هذا اليوم، وسيكون شيئاً مفرحاً لأهل المدينة

أن يتفق الزفاف مع يوم التنصيب، ويهمنى حق اختيار هذه الزوجة من بين النساء اللاتى يرغبن فى الزواج من جئن لحضور هذه الحفلة. رأنى شارد الذهن، صامتاً، فظن أننى متى فى قبول هذا العرض. كنت أحاول أن أستوعب فكرة أننى صرت جزءاً من هذا العالم الذى بدأ يعيد ترتيب حياته بما يتفق مع نواميسه وغاياته. أبلغته أننى لا أحمل إلا التقدير والإجلال للمدينة وتقاليدها وساكون سعيد الحظ إذا أتيح لي الاقتران بإحدى نسائها. قلت هذا الكلام وأنا أنظر باتجاه نرجس القلوب التى صارت عونى ومرشدى في مهماتى الأميرية، فرأيته يبتسم مؤيداً اختيارى معبراً عن سعادته بأن تكتمل هذه الصلة التى بيننا بالزواج. فتمنيت عليه أن يسألها قبل أن يسألنى فهى الأحق بإبداء الرفض والقبول. فائلاً فى سرى وأنا أسلم نفسي لحياة جديدة وسط خيمة الحلم، من أين لرجل مثلى جاء إلى هذه المدينة منذ ساعات، عارياً، جائعاً، حافياً، مقطوع الصلة بأهله وعصره أن يرفض مثل هذا العرض السخى؟ انه حلم يتحقق داخل الحلم. كانت أخيرة النبيذ قد شعشت في رأسى مرسلة بروقها الموحية. صرت الآن قادراً على الاندماج في هذه الأجواء الأسطورية

مستمتعًا برفقة هؤلاء البشر المصنوعين من وهم، معتبراً
نفسى واحداً منهم.

وضع الرجل يدى في يد نرجس القلوب ومضى يقرأ
الأدعية والأذكار وأنا أنظر مفتوناً إلى عينيها، مدركاً أنها
شهرزاد الأسطورة كما عرفتها وعاشرتها ورسمت منذ
الطفولة صورتها. هكذا تمنيت دائمًا أن التقى بها وهكذا
شاعت حكمة الشيخ الصادق أن تصل بالعلاقة التي بيننا إلى
حدودها القصوى، وإلى هذا العرس الذى تقيمه لنا مدينة
هربت من خرائط العالم ودورة الزمن كى تأتى إلى نجتى.
انتهى الحكيم جلال الدين من مراسيم عقد القرآن، فرفعت
الأقداح لتحيتنا، وضج المكان بصوت الموسيقى ترافق
سهرتنا. وأخذ الرجل نساعهم إلى حلبة الرقص، فأخذت أنا
أيضاً الأميرة إلى هناك، احتوى خصرها، وأدفن وجهي في
غدائير شعرها، أغيب لحظة منتشياً بعطرها وعيير أنوثتها،
ثم أرفع رأسي فيفاجئنى ما أرى وكأننى نسيت ما حدث لى،
وأسائل نفسي حائراً كيف يمكن أن تكون الحقائق المحسوسة
والملموعة حلماً، ويكون هذا الانفعال المتوج الذى يطربنى
ويتدفق ساخناً تحت جلدى وهماً، حتى بعد أن انتهى الحفل

ووْجَدْتُ نفْسِي فِي غُرْفَةٍ نُومٍ مَبْهَجَةً، ثُرِيَّةً بِأَبْسْطُتِهَا وَدِبْيَاجَهَا
وَفَنَادِيلَهَا الْذَّهَبِيَّةِ وَتَصَالِوِيرِ الْبَشَرِ الْمَجْنَحِينِ الَّذِينَ يَزِينُونَ
سَقْوَفَهَا وَجَدْرَانَهَا، وَحِيداً مَعَ الْأَمْرِيَّةِ الَّتِي صَارَتْ زَوْجِيَّةَ،
كُنْتُ مَا زَلْتُ أَسْأَلُ نفْسِي ذَاتَ السُّؤَالِ، وَلَثَقَا مِنْ أَنَّ مَا أَعْيَشَهُ
الآنَ أَكْثَرُ عَمْقًا وَصَدْقَا وَمَتْنَعَةً مِنْ أَىِّ شَيْءٍ أَخْرَى عَرْفَتُهُ قَبْلَ
الِانتِقَالِ إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ. وَسَوْاءَ كَانَ وَجُودِيُّ الْآنِ حَقِيقَةً أَمْ
وَهَمَا، حَلَمَّا أَمْ يَقْظَةً، فَإِنِّي لَا أُرِيدُ شَيْئاً أَوْ أُتَمَنِّي شَيْئاً إِلَّا أَنْ
أَبْقَى بِجُوارِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الَّتِي تَتَلَاقُ بِوْجَهِهِ لِهِ التَّمَاعُ الْذَّهَبِ
الْمَصْهُورِ وَتَوْهِجِهِ. جَلَسْتُ عَلَى الْأَرْكَيَّةِ بِجُوارِهَا وَأَمَامِهَا
كُوْزَانَ مَصْنُوعَانِ مِنَ الْذَّهَبِ الْأَحْمَرِ الْمَرْصُوعِ بِالدَّرِّ
وَالْجَوْهَرِ، يَحْتَوِيَانِ نَبِيَّذَا لَذِيَّذِ الْمَذَاقِ لِهِ رَائِحَةُ الْمَسْكِ.
صَارَحْتُهَا بِأَنِّي مَا زَلْتُ عَلِجَّاً عَنْ تَصْدِيقِ مَا أُرَى وَأَسْمَعَ،
فَقَالَتْ ضَاحِكَةً بِأَنَّ مَا أَرَاهُ لَيْسَ إِلَّا حَلَمًا وَمَا هِيَ إِلَّا الْمَرْأَةُ
الْطَّيِّفُ الَّتِي تَزُورُ الرِّجَالَ فِي أَحْلَامِهِمْ، كَدَتْ أَصْدِقُ مَا نَقُولُ
وَلَمْ أَكْتُشِفْ أَنَّهَا تَسْخِرُ مِنْ أَفْكَارِي إِلَّا عِنْدَمَا وَضَعَتْ كَفَهَا
فِي كَفِي قَاتِلَةً:
- أَلَا تَرَى أَنِّي مَصْنُوعَةٌ مِنَ الْهَوَاءِ.

فبلت يدها المباركة ذات النعومة والصفاء ولم أفل شيئاً.

- لن تقول هذا الكلام عندما تمام الليلة وتستيقظ غداً وأنت ما زلت في هذا القصر، أميراً يبجله الناس جمياً.

قلت شارد الذهن، عاجزاً عن تصديق ما قالته:

- سأستيقظ عندما أستيقظ في دارى بالمدينة التى جئت منها مواطناً بسيطاً يخاف أن يرمى نواة فوق الأرض.

- الناس لا يتكلمون في الأحلام عن أحلامهم ولا يحددون موعداً لدخولهم إليها أو خروجهم منها.

أردت أن أخبرها بما حدث لى قبل أن أصل مدinetهم وقصة انتقالى إليهم من زمان غير زمانهم لكي تعرف سبب حيرتى وعجزى عن التصديق، ولكنها أوقفتى بسرعة عن الاستمرار في الكلام، فائلة بأن طقوسهم تقضى بآلا يسألوا الرجل الذى سلك طريق الصحراء إليهم، من أين جاء وما هو أصله، فقيراً كان أو غنياً، عالماً أو جاهلاً، ينتمى إلى سلالة الملوك أو السلالات الأخرى. يكفي أنه استطاع أن يجتاز ذلك الطريق وينجو من كل تلك المهالك ومعنى هذا أنه صاحب أسرار وكرامات، ساقته أقدار علياً إلى باب مدinetهم،

فارتضوا به أميراً عليهم لا ينتمي لأحد إلا لهم ولا يعرف
مدينة إلا مدینتهم. وفهمت منها أنه صار على الآن أن أنسى
كل شيء عن نفسي، أنسى اسمى ومدينتى وأهلى، وأرضى
بالأسماء التي يطلقونها على أميرهم فهو سيد القصر وسالك
الدرب أمير عقد المرجان.

كانت يدها ما تزال في يدي وكانت النشوة رحیقاً
سحرياً يسرى في بدنى. سأنسى ذلك العالم الذى أورثنى
أمراض الروح، سأنسى مكعباته الاسمنتية وهواءه المحروق
وضجيج حديده وآلاته وفحیح إذاعاته التي تبشر كل يوم
بالکوارث والخراب، سأنسى رماده المذرور فوق الوجوه
وأمنح نفسي إلى أفراح هذا العالم الذى تفتح مباهجه كأزهار
الربيع تحت خطاي. سأجعل اتصالى به اتصالاً حقيقياً
وعميقاً، لا باعتباره حلماً بل باعتباره بديلاً رائعاً لذلك العالم
القديم الذى تقوض وانتهى حتى صار دخاناً من الذكريات،
وأعيشه كواقع أصيل ينبع بجلال الحياة وبهائها كما ينبع
جسد هذه الأنثى فانتاً تحت متزرها الحريرى. لا بد أن الأهل
هناك سينشغلون لغيبى وسيذهبون إلى مراكز الشرطة بحثاً
عنى ولعلهم يذهبون غداً أو بعد غد يفتشون عن ملامحى بين

مجهولى الهوية من ضحايا حوادث الطرقات. ولعل الشيخ الصادق يكون كر بماً معهم فيرسل إليهم من يخبرهم بأنه رأني أنتمى إلى هذه العوالم السحرية التي عشقته أهلها وكتب عن أحداثها وتاريخها بأكثر مما أنتمى إلى ذلك العصر، فحررني من سطوة الزمان والمكان وأحالني سهلاً مشدوداً إلى وتر وقوس، ثم أطلقني لاختراق مسيرة مئات الأعوام واجتاز كهوف الجن وثعابين النار وأوكار الطيور الجارحة، خارجاً من زمن الغربة والمنفي عائداً إلى أهلى الحقيقيين وزمني الحقيقي ومدينتي الحقيقة. ها هي مدينتي الجديدة تبسط لى أرضاها وجناحها، تلبسني من لباسها وتسقيني من شرابها وتطعمنى من صاحفها وتدخلنى في طقوسها، تضع جوهرة الحكم فوق رأسي وتقدم أجمل أميراتها لمؤانستى. أخذت امرأة إلى السرير أنسوها عنها مئزرها فيتجلى بها الجسد كبسنان الهى متقل بفواكه الجنة. أتجول بين جداولها وأشجارها وأقطف من ثمارها وأشرب من خمر رضابها وانتشى بموسيقى الفجر تعزفها طيور الفرح التي تسكن جسمها. أجدها مهرة لم تترك ودرة لم تتقب فأستمتع ببكاره الجسد الأميرى وأنام بعد ذلك نوماً خالياً

من الكوابيس التي كانت تعذبني بزياراتها الليلية، لأنني أغفو فوق بساط الريح المصنوع من أجنحة الملائكة. وأصحو في الصباح على صوت الشحابير والحساسين وعصافير الكناري، تشنو فوق العرائش التي تتسلق شرفة داري، وأفتح عيني لأرى السقف الذي تزيقه صور الكائنات المجنحة ما زال فوق رأسي، ونرجس القلوب ممددة كشعاع النور يجواري، فاللوم نفسي لأنني أسمى هذه الحالة التي انتقلت إليها حلماً، وها قد مضى الليل وجاء النهار، ودخلت في النوم وخرجت منه، دون أن يتلاشى الحلم أو يتبدد. أيقنت بأن ما أعيشه الان ليس إلا حياة جديدة مباركة تتيحها لى أسرار رجل عارف بالله. بقيت جالساً في سريري، أتأمل المرأة التي تعرى زندها وتسلل من نافذة الشرفة أول شعاع لشمس الصباح وانسكب فوق وجهها، فبدا مبهجاً بريئاً يوقف في ذهني ذكرى لوحة رأيتها ذات سفر، لأميرة أسطورية من أميرات الجمال، نائمة في خدرها وقد تفنن الرسام في تصوير النور الذي يلثم وجهها. غير مصدق أنني حاورت البارحة هذا الجسد واستمتعت بكشف أسراره والاعتراف من بهائه. مددت يدى أنتمس البشرة التي لها نعومة أوراق الورد

وكأنني أتعرف عليها لأول مرة، سرت دفقة من رحيق اللذة في جسمى حتى ارتعشت أطراف أصابعى نشوة وطرباً، وأمأخوذأ بانسياط جسمها صرت أنصت إلى النفس الذى يتردد وأراقب الصدر الذى يرتفع وينخفض وكأننى في حضرة كائن سماوى مقدس.

كنت مشتاقاً إلى التعرف على معالم هذه المدينة التي صرت أميراً عليها وحاكماً على رقاب أهلها قبل أن أراها وأعرفها. أخذتى نرجس القلوب، بعد الإفطار، في جولة عبر حدائق القصر وبساتينه. أررتى جنائن الورد التي يصنعون منها سوراً للقصر و يجعلونها بديلاً للسياجات والجدران وأسياخ الحديد. تجولنا عبر أشجار التفاح والبرتقال والنارنج التي كانت مثقلة بثمارها في حين كانت أشجار اللوز والبرقوق والمشمش والكمثرى والخوخ والتين قد برعمت وفاح عبرها مختلطًا بشذى الورد والفل والياسمين والنسرین والنرجس والبنفسج والزنابق. كانت الأحواض المليئة بالماء، والجدائل التي تنسلي بين الأشجار عامرة بأسراب البط والأوز والبجع. شاهدنا طيور الدورى والحساين والكناري والببغاء ذات الألوان الزاهية وهي تأوى إلى أعشاشها أو

تدرج فوق أعشاب الحديقة دون أن يفزعها افتراينا منها.
وقفت بجوار طيور الطاووس أراقبها وهي تبدى فرحتها
بمجيء الأميرة، تقترب منها وتقرش ريشها المتعدد الألوان
فيضيف بها إلى بهاء الماء والأعشاب والأشجار والزهور.
كما تبادلت التحية مع العمال الذين يشتغلون وسط الحقول
والمشاليل والمناطق المخصصة لزراعة الخضروات والبقول.
وعدت بصحبة نرجس القلوب إلى داخل القصر لأنعرف
على محتوياته وأطوف بين ردهاته وقاعاته، أررتى باب
غرفة ظلت مقلة منذ أن تم بناء القصر. أغلقوها ورموا
بالمفاتيح إلى قاع البحيرة التي تقع خارج أسوار المدينة
بحيث لا يفكر أحد في فتحها. غرفة اقتضت حكمة الأسلاف
أن تبقى مقلة مدى الدهر. وقفت أمامها طويلاً أتأمل النقوش
فوق الباب الخشبي وقد بدت في شكل نيازك ونجوم هاربة
من ابراجها، ولم أفهم من أحرفها المتداخلة سوى العبارة التي
تحرم الدخول إليها. سألت نرجس القلوب عما يمكن أن يكون
السبب الذي من أجله بنيت هذه الغرفة المعلقة على أسرارها،
فأخبرتى بأن أحداً لا يعرف على وجه اليقين ما هو هذا
السبب، إلا أن هناك أسطoir كثيرة تتواءر عن هذه الغرفة،

من بينها أن أحد الرجال الصالحين جمع كل الأفاعي والعقارب والحشرات السامة التي كانت تفتاك بأهل المدينة وسجنهما خلف هذا الباب، ورواية أخرى تقول بأن أحد أمراء المدينة من لهم سيطرة على الجان والعفاريت جمع كل الأرواح الشريرة في هذه الغرفة وختم عليها. ورواية ثالثة تتفى ذلك كله وتقول بأن للغرفة معنى رمزاً يهدف إلى اختبار قدرة أهل البلد على مقاومة الفضول الذي يجلب الكوارث فإذا فتحوها كان معنى ذلك أنهم يفتحون على أنفسهم باباً للشر والهلاك، ومهما كان الدافع وراء بنائها فقد احترم الناس جيلاً وراء جيل حكمة الأسلاف الذين أمروا بأن تبقى مغلقة على الدوام. تركت الغرفة السرية بطلاقتها وأساطيرها، وانتقلت مع الأميرة لمعاينة ما احتواه القصر من تحف وتماثيل وتصاوير على الجدران والسقوف لطيور الطاووس التي عرفت أنها كانت شعاراً قديماً لحكام المدينة، ورسوم أخرى لفرسان ومشاهد طبيعية لأرض خضراء تفرشها الزهور وتسكنها الوعول والغزلان. وتفقدنا الغرفة التي وضعت بها مناضد مغطاة بمفارش من القطيفة الخضراء، وفوقها صفت الهدايا التي جاء بهالينا أهل

المدينة بمناسبة الزفاف، تحف وحلوي ومزهريات وفلاوندو حق طيب وقوارير عطر وسجاد مطرز بالنقوش. وجدنا امرأة مسنة جاءت متأخرة تحمل هديتها، فشكراها واستضفناها على مشروب من مخلوط الفاكهة. كانت الهدية شالاً لنرجس القلوب اشتغلت بنفسها في حياكته وتطريريه على شكل قوس قزح. اتفقت مع الأميرة على أن أتفرغ أياماً سبعة للتعرف على جوانب الحياة في المدينة قبل أن أباشر المهام الرسمية. اندھشت عندما خرجت إلى الشوارع بصحبتها دون أن يرافقنا حراس وحجاب. وجدتها تضحك عندما سألتها عن المرافقين والحراسات والجدار الأمني الذي يجب أن يحمي الأمير والأميرة، فهذا تقليد لا تعرفه مدينة عقد المرجان، وتسألني ببراءة عن السبب الذي يدعو إلى ذلك. أيقنت بأننى سأرتكب مزيداً من الأخطاء إذا اتخذت من العالم القديم مرجعاً لفهم هذا العالم، لأننى عنده سوف أسأل عن الإذاعة التي تنقل خطابات الأمير والصحف التي تكتب افتتاحيات التمجيد له والدبابات والمدافع التي تحرس قصره ومختلف مظاهر القوة التي لا يستقيم الحكم هناك بدونها.

كانت المدينة لا تشبه شيئاً إلا ما تمثله في ذهنى أبھي
وأجمل مدن ألف ليلة وليلة، ساسان في عهد الملك شهریار
أو سمرقند التي يحكمها أخوه، أو مدينة النحاس عاد إليها
أهلها، يضوع عبرها كخضاب امرأة ليلة عرسها، وتجري
قوافل الماء تحت أشجارها وتتوهج في مسقط ضوء الشمس
باب مصبوغة بماء الذهب لأبنية تحمل عبء التاريخ هي
معابدها القديمة، هكذا بدت لي منذ اللحظات الأولى وأنا
أمرق بصحبة نرجس القلوب مع طرقاتها التي تحفها الأشجار
وأعلق البصر بشرفاتها التي تتساقطها الدوالي وأعراف
البياسمين وأنامل أعمدتها وأقواسها وبيوتها البيضاء ذات
الطابق الواحد والطابقين، تحيط بها الحدائق وتزين أبوابها
وشبابيكها ومشربياتها الزخارف والنمنمات، وتزدهي مداخلها
ومدارجها ببهاء الجداريات ولوحات الفسيفاس. اجترنا
الأحياء السكنية التي تجاور القصر بمنازلها الغاطسة في
أمنها وسلامها، وعبرنا أكثر من قطرة فوق القوات التي
تشكل شبكة الطرقات المائية، حتى وصلنا إلى مركز المدينة
بأسواقه وشوارعه التي تضج بالحركة والحياة. شارع
للنجارين، وآخر للحدادين، وثالث للنساجين، ورابع للصاغة،

وخامس لصانعى الخزف، وسادس للوراقين، وسابع لدكاكين العطرية. تجاورها شوارع أخرى مأهولة بالسكان وعاصرة بالمدارس والحمامات. شوارع ذات نسق معماري متباين، تتواصل وتتقاطع، وتلتقي وتفترق عند باحات كبيرة عرضت بها السلع والبضائع التموينية. ساحة للأقمشة والملابس والأحذية، وأخرى للمواد الغذائية من حنطة وذرة ودقيق وزيت وعسل وبقول، وثالثة للأسماك والطيور واللحوم، ورابعة للفاكهة والخضر والزهور، وغيرها للأثاث وحاجات البيوت ومواد البناء. كلها أنيقة نظيفة، صفت فيها البضائع فوق مناضد تحت الأقواس وأخرى تطللها مظلات من القماش مزينة بالعقيق، حيث تقوم العاملات على تلبية حاجات الناس وصرف البضائع التي يريدونها. كنت سعيداً لأنني أطوف الآن مدينة لا تعرف السيارات وضجيجها وأبواقها وعوادها، ولا النفت شمالاً ويميناً خوف أن تدهسنى عجلاتها. كانت القوارب هي التي تحمل البضائع داخل المدينة، بينما يستعينون في الأرياف بالحيوانات على حمل المحاصيل إلى القوارب كما أفهمتني نرجس القلوب. وكانت الشوارع المتعانقة، والأبنية ذات الأقواس والقباب، تشيع في

نفسى جواً من الالفة والحميمية، بطابعها المتجانس المترابط وزخارفها ذات التكوينات المكعبية والدوائر المتكررة والألوان المريحة الهدئة. وكنا نتلقى التهئة من تلقى بهم من نساء المدينة ورجالها. وتألقت نرجس القلوب عروساً من عرائس الأساطير، ارتدت فستاناً حريرياً مشجراً يلائم مناخ الربيع تزاوجت ألوانه بين البنفسجي والذهبي والفضي، وتنزرت بحزام مرصع بالجواهر والأحجار الكريمة، يظهر بهاء الخصر الدقيق المجيد، ووضعت مشبك الذهب الأحمر المرصع بالياقوت الأبيض في مفرق الشعر الذى تهدلت كراديسه فوق كتفيها، وسارت بجوارى تفت عطرها الساحر وتقوم بدور الدليل. تقد خطاي وتشرح لى ما خفي عنى من أحوال هذه المدينة. عرفت منها ان للمدينة سوراً يحيط بها من كل الجهات وللسور ثمانية أبواب تبقى مفتوحة دائماً ولا تغل إلا إذا تعرض أمن المدينة للخطر. وصلنا في جولتنا إلى واحد من هذه الأبواب، فأدھشنى أنه يفضى إلى أرض منبسطة خضراء، وقد لاح جانب من البحيرة التي تتمو على ضفافها أشجار النخيل والصفصاف. وفي حين كانت الصحراء تمتد جنوباً فإن هذا الجزء الشمالي من المدينة هو

موطن الحقول والمراعى والبساتين التى تحف بها المياه والغابات والهضاب الخضراء. اجترنا البساط الأخضر الذى يؤدى إلى البحيرة، نستقبل هواء الحقول الذى تعيق بالطمأنينة والهدوء، وتغتسل بشمس الربيع. وقفنا قرب البحيرة التى يصطادون منها السمك ويتزهون فوقها بالمراكب، ولاح فى طرفها البعيد شلال ينحدر من إحدى الروابى صانعاً زبداً وأبخرة. قدمتى الأميرة إلى أحد أقاربها، ابن خال لها يعلم نوتيأ ويقود مركباً لصيد السمك. رحب بنا ودعانا إلى نزهة فوق مركبه. كان المركب أنيقاً نظيفاً ولكن الأميرة خشيت على فستانها من البلل، فأحضر النوتي بساطاً وضعه فوق الدكة الخشبية وقاد المركب ببطء لكي لا يتأثر علينا الرذاذ الذى تثيره حركة المجاذيف، ومضى يعبر بنا سطح البحيرة الهادئ الذى تترفرق فوقه أشعة الشمس. أعطانا الرجل خبراً صرنا نطعم به طيور البط والبجع التى تسبح قربنا، ومن خلف الحقول تناهى صوت غناء المزارعين. وبإحساس من يريد أن يختزن هذا الجمال ويحتفظ به ليكون زاداً في أزمنة المسغبة، أجلت الطرف متأنلاً عناصر هذه اللوحة التشكيلية. في مركز اللوحة كانت تجلس امرأة مصنوعة من بهاء

النرجس تركب قارباً يمضى برشاقة فوق الماء، تحف بها قطعان البعع ونضارة الحقول، ولاحظت في البعيد قباب المدينة ذات اللون الذهبي وتناثرت وسط الحقول بيوت بيضاء تصيف لوناً إلى ألوان اللوحة. لا أدرى لماذا لم أستطع أن أضع نفسي وسط الصورة ويفيت متفرجاً بعيداً، كأنى لا زلت لا أصدق أننى أصبحت جزءاً أصيلاً من هذا المشهد، مع أننى ومنذ أن خرجت هذا الصباح متوجلاً، كان يداهمنى إحساس غريب بأننى سبق أن رأيت هذا كله، وأننى بطريقه غامضة لا أجد لها تفسيراً، أعرف هذه المدينة وكأنى رأيتها في حياة سابقة عن حياتى هذه. كانت نرجس القلوب هى التى أدخلتى في المشهد. رأتى شارداً فوضعت يدها في يدى وهمست تدعونى إلى سماع ما يقوله النوى. وكان النوى يتحدث عن المرجان. عرفت منه أن لصيد اللؤلؤ والمرجان موسمًا يترك خلاله بعض الصيادين صيد السمك ويهتمون بالغوص لاستخراج اللؤلؤ وجمع المرجان من أعماق البحيرة. وهم يستعملون هذه اللالئ في مبادلاتهم التجارية مع البلدان الأخرى ويصنعون منها تحفًا وحلياً لأنفسهم، ولهذا سميت المدينة عقد المرجان.

أمضيت أيام الأسبوع متوجلاً عبر شوارع المدينة
وميادينها وأسواقها وحقولها، متعرضاً على أسلوب معيشة
أهلها، متراجعاً على الأفراح التي يقيمونها كل مساء. اخترت
مظاهر الفقر والبؤس ومشاهد العنف وأكdas القبح التي كنت
أراها في المدن الأخرى. لم ألتقط بمنسول أو محتاج، ولم
أقابل مشهداً يصيّبني بالضيق والكدر، ولم أر عراكاً أو
شجاراً أو أسمع أحداً يشتم أحداً أو ألحّ أنساناً يتزاحمون
ويتهافتون على سوق أو بضاعة. كان ما أراه عيداً يفضي
إلى عيد آخر، وأفقاً للفرح ينفتح على أفق أكثر جمالاً،
وبحوارى نرجس القلوب، نجمة هبطت من سمائها وصارت
تدرج فوق الأرض، قطعة من الضوء والبهجة. فامضى
واضعاً يدى في يدها مشمولاً بلذة الاكتشاف ومنتسباً بكل ما
يعيق به الجو من سكينة وسلام وبهاء، وما تتبعنه به
الأشجار والأعشاب والحجارة من أضواء وألوان. حفروا
عشر قنوات تشق الحقول والسهوب وتتقلّل ماء البحيرة إلى
المزارع والمراعي والبساتين، وعشرون قنوات أخرى تمرق
عبر شوارع المدينة تنقل الماء إلى بيوتها وأشجارها
ونوافيرها وتضيّف جمالاً إلى جمال شوارعها وأحيائها، ويتم

استخدام بعضها للنقل والمواصلات. وفي المساء يغمر المدينة جو احتفالي، حيث يتجمع الناس في الميادين والحدائق والساحات التي رفعت منها البضائع، يتحلقون حول العازفين في عرس يومي، يستمتعون بمباهج الطرف والرقص والألعاب الجماعية التي يستعملون فيها أحياناً الأقنعة والملابس التتركمية. لم أر مظهراً من مظاهر الحكم والسلطة أو شرطة يطوفون الشوارع يحرسون الأمن والنظام. وكان هذا الجو الاحتفالي يشعلني أنا أيضاً فأنسى أنني غريب جاءت به الصدفة ليكون أميراً، وأمضى متقدلاً بين حفلات الرقص واللعب، يفعمني فرح لا ينضب، وبجواري نرجس القلوب تضحك وتصفق وتشارك في الغناء الجماعي وتحظى بمحبة الأطفال الذين يأتون مع أهلهم، فأنظر إليها متشوقة إلى اللحظة التي تضمني معها غرفة واحدة لألقى منها دفقة الحب والحنان واستمتع بمباهج الألوان في زهوها وسطوعها. تدلك جسمها بالطيب وزيوت الأعشاب التي تجعل بشرتها تتلألق كالünsicht وتنشر في جو الغرفة عطرًا ذكياً مثيراً للشهوة. يتسلل العطر إلى كل خلايا جسمى يشعل جذور الشوق والرغبة، ويمتد بنا السهر والعناق لساعات طويلة

نتسامر ونحتفل بأعياد الروح والبدن. عرفت من حديثها ومما رأيت وسمعت أثناء هذه الجولات لماذا لا توجد حبوب ومكوس ولا يعرف أهل هذه المدينة العوز والفقر، ولا يتعاملون بالنقود، ولا يملكون شرطة ولا أجهزة للدولة، ولا يعمل أحد لحساب أحد، ولا يحتاجون إلى عطلة أو إجازة يمنحها لهم الأمير، فقد أوجدوا لأنفسهم نظاماً يعفيهم من هذا كله. يشتركون جميعاً في الإنتاج ويشتركون في الانتقاع به، حيث يعرض هذا الإنتاج ويأتي كل إنسان ويأخذ ما يكفي حاجة دون مقابل ودون أن يكون العمل إلزاماً أو وظيفة لها جدول ومواعيد ودوام، فقد تركوه لرغبة الإنسان وإرادته الحرة، يختار ما يحب من الأعمال، ويعمل متى راق له العمل ويرتاح منه متى أراد. أما ما تحتاجه المدينة من أعمال عامة مثل بناء التحصينات وترميمها وحراستها فهو عمل تناوبى، يترك الواحد منهم مهنته ويتفرغ لمدة شهر واحد للقيام بهذا العمل بشكل تطوعى. وانتهى بذلك أى تفاوت في الدخل أو حاجة إلى النقود أو المكوس أو الشرطة أو السجون، كما انتهى ذلك الصراع على الرزق الذي تنشأ عنه الصراعات الأخرى، وأصبحت كل الموارد مشاعاً

بينهم، الأرض والزراعة والرعي والمواشى والمحاصيل، يعيشون جميعاً كما يعيش أفراد عائلة واحدة، ويستفيدون أيضاً مما يخرجونه من البحيرة في مواسم صيد اللؤلؤ والمرجان، يرسلون بعضه إلى البلاد الأخرى التي يذهبون إليها عبر المرات الجبلية في قوافل موسمية، يقايضونه ببضائع وغلال وخامات لصناعاتهم كما يرسلون منه الهدايا إلى الملوك والأمراء الذين يتعاملون معهم، عقداً لأوامر الود والصدقة. وبمثل ما شكلت المنطقة ال الصحراوية ذات الأخدود والمهالك عازلاً طبيعياً يمنع عبور الجيوش الغازية فإن سلسلة الجبال التي تحيط بالمدينة من الجهات الأخرى سهلت عليهم إقامة التحصينات والحراسات ووسائل الدفاع التي تحميهم من اطماع الدول الأخرى وتتيح لهم فرصة صد أي هجوم على مدينتهم. وسألت نرجس القلوب عما يفعلونه لشأن نشوب النزاعات وارتكاب الجرائم فأوضحت لي كيف أن أشياء مثل هذه لا تحدث إلا نادراً وعندما تحدث فهي غالباً ما تكون أمراً هيناً ينتهي بالتصالح، فلدى كل حى من أحياء المدينة والضياع التي تحيط بها مجلس صغير يتكون من أكبر الناس سناً يتولى حل هذه المشاكل وتنقية الأجواء.

لقد ضمنت التربية الصوفية التي يلقونها للصغرى في المدارس الارتفاع بمشاعرهم عندما يكبرون، وتعتني عواطف المحبة بينهم ونزع كل ميل للشر والعدوان. كنت متهيأً من واجبات الإمارة ولكنني تبيّن أن منصب الأمير لا يحمل أية مسؤوليات. انتهى شكل الدولة وارتقي البشر إلى مستوى التعامل من خلال الذات العليا وأصبح لا دور للأمير إلا مقابلات المjalmaة مع مبعوثي الدول. لم أرهم يستعملون علمًا أو نشيدًا أو يتذمرون لمدينتهم شعارًا فكل هذه الأشكال انتهت بانتهاء الدولة التي تبحث عن رموز تشير بها العصبية الوطنية وتحرك بها حماس الناس في المناسبات القومية.

تألفت مع هذه الحياة الجديدة فلم أعد أفكّر في العالم القديم الذي انتهى أو الزمن الذي مضى برغم أنه لم يأت بعد. ولم أعد أخشى أن أستيقظ فأجد نفسي ملقى خارج أسوار هذه المدينة عائداً إلى صحراء القبط وطيورها السوداء. أصحو كل صباح فأجد أن الأميرة قد استيقظت مثلى ل القوم سوية بالتمرين الروحي اليومي باعتباره تقلیداً يمارسه كل أهل المدينة، وأخذ بعد ذلك حماماً مشتركاً ثم نتناول افطاراً من الحليب والفطائر والفاكهة ونذهب معاً في جولات التعرف

على المدينة التي تفاجئني كل يوم بجانب جديد في شخصيتها ونظامها، فهذه دار للاستشفاء ونساء يُجذن التطبيب والتمريض وحكيمات وحكماء يصنعن الأدوية من أعشاب ونباتات يزرعنها في حديقة الدار، وهذه دور فسيحة استواعبت الأطفال الذين ذهبت أمهاتهم إلى العمل، ومدارس أكثر اتساعاً وبراهاً استواعبت الفتيات والفتian الأكبر سنًا، يتعلمون القراءة والكتابة والحرف اليدوية والموسيقى وأعمال الري والزراعة والنسيج وفنون الصيد التي يستقينون منها في تأهيلهم لمهمات الدفاع عن مدينتهم إذا دعت الضرورة، كما يعلمونهم بجوار ذلك دروس التصوف والحكمة وأداء التمارين الروحية. وأذهب إلى المزارع فأراها مزرعة واحدة كبيرة باتساع الأفق لا تفصلها الحواجز ولا الأسوار وفي جانب منها حقول لرعى الأغنام والأبقار والخيول، وأذهب إلى ضفاف البحيرة فألتقي بالصيادين وقد جامعوا بمراكمهم ينزلون شبакهم ويفرغون حمولتها من الأسماك وأسمع الأناشيد يعنيها النوتين وعمال مقاطع الحجارة في طرف الجبل والبناءون والمزارعون، وأعجب كيف أن العمل مهما كان مضنياً وقاسياً يتحول في هذه المدينة إلى لعب ومتعة

واحتقال يشارك فيه الناس بالغناء الجماعي، وأعرف أن لهذا الغناء وظيفة أخرى بالإضافة إلى التسلية والمرح، فهو يتيح للذهن الانشغل بالغناء عن التركيز في التعب والألم الذي يسببه العمل العضلي، وأتأمل هؤلاء العاملين الذين يتصدون لأداء أكثر الأعمال صعوبة واتساعاً كيف لا يغريهم النظام الذي يربط العمل بالرغبة الشخصية ببناد العمل والانصراف إلى اللهو واللعب أو اختيار عمل أكثر يسراً واسترخاء، فأجد أن نظاماً كهذا النظام الذي وضع الإنسان مباشرة أمام مسؤولياته لا رقيب عليه إلا نفسه، قد أفلح في رفع درجة حسه بالمسؤولية، وجعله يقبل التحدى لكي يبرهن على جدارته بالحرية. وعندما جاء اليوم الذي ذهبت فيه إلى ديوان الحكم لم أستغرب لأنني لم أجد عملاً يشغلني لأكثر من دقائق معدودة وهو تلقي تقارير بعض المناوبين على الحراسة والمشرفين على الاستحكامات المقامة بين الجبال والتي تقول بأن كل شيء على ما يرام. كنت أعرف أنني أباشر مهمة في مدينة لا تحتاج إلى حاكم يشرف على جيوشها ومخابراتها أو يهتم بتنصيب وزرائها وقضائها أو يتحكم من مكانه العالى في إدارة الصراع الذى ينشب بين الفئات المتاحرة على

الرزق والنفوذ ويطارد أعداء المجتمع من مخربين و مجرمين وخارجين على القانون وطاعة السلطان، ولم يكن غريباً بعد ذلك أن يزهد أهل البلد في هذا المنصب فيوكلونه إلى أول رجل تائه في الصحراء تذبذب به الرياح على أبواب مدinetهم. سألت الأميرة إن كان ثمة شيء آخر يمكن فعله بدلاً من هذه البطالة فأبلغتني أن الأمير أيضاً يشارك بجهده العضلي في الانتاج ويباشر عمله ببستانين القصر في الساعات الأولى من الصباح. استسلمت فيما تلى ذلك من أيام لهذا التقليد الغريب الذي يجعل الأمير عاملًّا يدوياً من عمل الزراعة، وفي حين تذهب نرجس القلوب للاهتمام ببستانين الورد، أرتدى ملابس العمل وأقضى ساعات الصباح الأولى أحمل رفشاً أو فأساً لعزق الأرض وغرس المشائط والمشاركة في جنى محاصيل البقول، ثم أعود لأخذ حماماً وأرتدى بدلة الحكم وأجلس لاستقبال زائر أو تبادل الحديث مع المبعوثين الذين يعودون من زيارة البلد الأخرى. وأجد لديهم تقويمًا غريباً لا أعرفه، ينحدر من العهد البابلي، فلأحاول أن أهتدى إلى الزمن الذي يفصلني عن العصر الذي جئت منه وأكتشف من خلال أحاديث هؤلاء المبعوثين وما يقولونه عن بلاد الفرس وشبه

جزيرة العرب وحكم السلجوقة لبعض تلك المناطق أتنى في تاريخ لا يبعد إلا بعض العقود عن الأول الميلاد وأن ما يزيد عن تسعه قرون تفصل بيني وبين ذلك العصر، وأننى الآن أعاصر جداً من أجدادى يفصل بيني وبينه أكثر من ثلاثة جيلاً. تعلو ندى الحيرة والارتباك وأنذك من فراءاتي آلة الزمان التي تنقل الإنسان آلاف الأعوام إلى الأمام أو تعيده آلاف الأعوام إلى الوراء فهى لم تكن في حالي خيالاً وإنما حقيقة أعيشها الآن. ينتهي عملى في الديوان سريعاً فأعود إلى القصر لأرتاح قليلاً أثناء فترة الغداء، وأرتدى في المساء ثوباً خفيفاً وأتحرر من العمامة التي لم أستطع أن أتعلم كيف أطويها فوق رأسي فصرت لا أرتديها إلا في المهام الرسمية بعد أن وجدت من أهل المدينة من لا يهتم بارتدائها، وأنذهب مع نرجس القلوب للمشاركة في الاحتفالات أو انتظار زيارة الحكيم جلال الدين الذى غالباً ما يأتى حاملاً كتاباً يتحدث عن تواریخ الممالك القديمة أو يحتوى على أشعار المتصوفين وحكمتهم أو سيرة أحد الأبطال التاريخيين، فهو يزور القصر كلما أراد أن يرتاح من عمله في صناع الأحذية، ليواصل مهماته التي كان

يقوم بها مع الأمير السابق كمستشار وصاحب رأى وبصيرة. ومنه عرفت كيف اختلط الدين الإسلامي ببعض تقاليدهم القديمة التي لم تضر بجوهره. جاءهم عن طريق أحد الرجال الصالحين من أهل التصوف الذين عبروا الصحراء إلى مدينتهم. تولى الإمارة واجتهد في هداية الناس إلى الدين الجديد دون إكراه أو عسف، وانتهت بذلك المعابد التي كان أسلافهم يعبدون فيها القمر دون أن يقيموا معابد بدلًا منها، فصار الدين توجهاً إلى الله الواحد الأحد، الرحمن الرحيم، الذي وسع كرسيه السماوات والأرض، والذي احتوى كل شيء واحتواه كل شيء، مصدراً للنور والخير والهدى، وكائناً أسمى تعالى عن العالمين لا يصوروه في التماثيل أو الرسوم ولا يقيمون له المعابد ولا يتخذون الوسطاء في علاقتهم به. فهو تواصل واتصال بين الإنسان وخالق الكون، وبين الإنسان وعوالم النور التي زرعها في قلبه. ولذلك فهم لا يعرفون طقوساً ولا شعائر إلا الصلاة التي يتوجّهون بها إليه بقلوبهم، ويستهلون بها يومهم عندما يقرعون سورة الفاتحة ويقومون بأداء تمرينهم الروحي الذي يحافظون به على جذوة النور متوجهة في نفوسهم فلا تخبو ولا تذبل.

توثقت العلاقة بيني وبين هذا الرجل الحكيم فصرت أذهب إليه متى تأخر عن زيارته وأقضى جزءاً من الوقت في حانوته استمع منه إلى حكمة أهل هذه المدينة وأسأله كيف اهتدت إلى هذا النظام الذي تاهت عنه أجيال تعاقبت بعدهم، فكان يسألني مذهشاً كيف أستطيع معرفة الغيب، أو التبؤ بأن الأجيال القادمة سوف تهمل هذا التراث، وتفسد هذا النظام بدل أن تغنيه وتضيف إليه، فأندم على ما بدر مني وأسكت عن الكلام أو أنقل بالحديث إلى موضوع آخر، إلى أن تأتي مناسبة أخرى فأجد أن الإشارة إلى الزمان الذي جئت منه قد أفلتت من لساني، وأنني أضرب مثلاً أو أسوق حديثًا يعتمد في مرجعيته على ذلك العصر. حدث هذا مرات كثيرة وأنا أحاور الشيخ أو أتسامر مع نرجس القلوب أو أتبادل الحديث مع الآخرين الذين أختلط بهم أثناء العمل ببساتين القصر أو الجلوس في الديوان، وكانت بسرعة أسألهم أن يغروا لي هذا الشطط في الخيال، فلا سبيل إلى شرح مسائل تعجز عقولهم عن استيعابها. وكان لا بد أن يصل الحديث بيني وبين نرجس القلوب خلال ساعات الليل إلى تلك المنطقة المسكونة عنها من تاريخ حياتي، ولم تكن هي

تسألنى أن أذكر لها شيئاً يتصل بأهلى ونشأتى، وإنما كانت
تطلب منى أن أحكى لها عن أعجب ما رأيت أثناء الأسفار
التي أوصلتني إلى مدينتهم. وكنت أجد نفسي أحياناً أحكى لها
عن مدينة ملاهى مساحتها بحجم الأرض، تضىء سماءها
العالب ناريه قاتلة، وأقمار من صنع الإنسان، شرب أهلها من
نهر الجنون والعقربية فصاروا يتقلون في صناديق طائره،
وأخرى تجرى مثل الرياح فوق الأرض، ويرسلون مراكبهم
تستطلع أخبار الكواكب والنجوم، ويتسامرون عبر هواتف
تنقل الحديث بين أصدقاء تفصل بينهم سبعة بحار،
ويخترون عالماً آلياً ينجز العمل الذى كان يؤديه آلاف
البشر، ويستخدمون مرايا تنقل إلى بيوتهم كل ما يحدث من
وقائع وأحداث كبيرة في الدنيا فيرونها ويسمعونها صوتاً
وصورة ساعة حدوثها، وفهروا ظلمة الليل بأشعة تجرى عبر
الأسلاك ينيرون بها شوارعهم وبيوتهم، ويستعملون في
حرفهم أسلحة بحجم حبات الفاكهة تسقط الواحدة منها فوق
مدينة فنهالك جميع أهلها. وكانت نرجس القلوب تتدesh لقوة
الخيال التي جعلتني أخترع هذه الحكايات، وأصنع هذه
العالم الأسطورية، التي لم يرد ذكرها في كل ما يتداوله

الناس من أساطير، بما في ذلك الأحاديث عن الجن وممالكهم السحرية، وكنت أسكن عن اكمال بقية القصة. أعيش مع الرواية الناقصة لكي لا تلتحقني تهمة الجنون لو أكملتها. لقد تعلمت خلال هذه الأيام أن أهل عقد المرجان لا يعرفون الكذب، فهو بالنسبة لهم شيء لم يتم اختراعه بعد، أن الواحد منهم لا يستطيع إلا أن يكون صادقاً لأنه ليس في حياته سبب واحد يدفعه إلى قول الأكاذيب، وما أنا إلا الاستثناء الوحيد بينهم. إنني بطبيعة وضعى خارج العصر الذى شهد مولدى ونشأتى، لا أستطيع أن أكون صادقاً معهم، ولا نجاة لى إلا بالكذب، فأسكن عن الإفصاح بحقيقة، مرتدياً ملابسى التكيرية، متسائلاً بينى وبين نفسي عن تلك الأسباب الكامنة في طبيعة الإنسان، التي تجعله يتقن لعبه الفرص الضائعة، وتجعل الخطيبى للدرج الحضارى ينكسر، فينتح الشرخ حروباً وصراعات وبيئة ملوثة وأسلحة فناء وتجعل المجتمعات البشرية وبعد مسيرة ألف عام تتسى المعادلة البسيطة التي صنعت مجد وبهاء الإنسان في مدينة عقد المرجان. تركوا المواطن على سجنته، خارج الأطر والنظم وقواعد الحكم والدولة، فاهتدى بفطرته ومداركه العقلية إلى

مسؤولياته، وأنجز مدنية حلمه، دون حاجة إلى وصاية المؤسسات التي تدير حياته بالنيابة عنه، أو سلطة التشريعات التي تأتي من خارج ذاته، وتفرض عليه أسلوباً في التعامل والسلوك. وبهذا من هذه التربية التي تؤكد انتماهه للكون الكبير، وموطنه الأصلي بين النجوم، ماضى الإنسان يحقق تواصله مع عناصر الطبيعة، وبينى وشائج أكثر عمقاً مع الآخرين، لتكون حياته فوق الأرض انعكاساً لهذا التوافق والتاغم مع حركة الكون، حيث يصبح كل الناس شركاء في انجاز الحلم الذي يتخذ شكل خيمة من الضياء والفرح يجلسون تحتها ويدعون مع مطلع كل نهار حياة تليق بهم. حتى علاقات الحب والجنس بين نسائهم ورجالهم صارت تعبيراً عن هذا السلوك الذي تحرر من قمع الفضائل المفروضة. يصلون إلى سن النضج فيتزوجون، بإرادتهم الحرة المرأة من أى غرض غير الحب يتزوجون. انتهت المصالح والتمايزات الطبقية التي تتدخل في عقد الزيجات والمصاهرات، وصارت المسألة تتم بين رجل وامرأة يحبان بعضهما ويرتبطان بهذا الرباط، وإذا نصب الحب يفترقان. حتى النسل اهتدوا إلى أسلوب ينظمونه به عن طريق معرفة

أيام الإلحاد لدى النساء. لم أر في هذه المدينة إلا عشاقاً،
تقدمت بهم السن أو لم تقدم، كلهم يحبون ويعشقون
ويمارسون عواطفهم بصدق وغفوية، فاختفي من قاموسهم
شيء اسمه العش أو الخيانة أو العار. ولا أدرى لماذا وجدت
نفسي في لحظة بوح ومكاشفة أطلع نرجس القلوب على
أسرار الرحلة التي قادتني إلى مدينتهم. لعلني تأثرت بمناخ
الصدق الذي يحيط بي، فلم أستطع أن أخفى حقيقتي. أو
لعلني قلت ذلك رغبة في أن أتحرر من هذا العبء الذي
أرهقتني، فلم أعد أكترث بما سألاقيه من نتائج. وجدت نفسي،
وأنا أجلس معها أثناء الليل بشرفة مطلة على الحديقة، ترقب
القمر والنجوم التي سكبت ضوئها في أحواض وجداول
الماء، أخبرها بأنني تسللت إلى عصرهم هارباً من عصر
آخر يتقدم عليهم قرابة ألف عام، وأن ما وصفته لها من
مخترعات لم تكن أشياء صنعت في ممالك الجن، أو أخباراً
فرأتها في كتب الأساطير وإنما هي حقائق وصل إليها بشر
مثنا، كنت في يوم من الأيام التي لم تأت بعد، أنتمى إليهم.
لقد استعملت شخصياً هذه المخترعات، ركبت الجو وامتلكت
السيارة وسكنت في بيوت تضيئها الكهرباء وتردحها بأجهزة

التسجيل والتصوير والمذيع والتلفاز والهاتف. سألتني ان
كنت أقول هذا الكلام هازلاً أو مازحاً، فأكيدت لها بأنني لا
أقول إلا ما عرفت وشاهدت، وأنني رأيت أن أكاشفها
بحقيقى لكي لا تكون علاقى بها تمويهاً وخداعاً. رأيتها
تجهش بالبكاء لأن ما قلته لم يكن في ظنها إلا هذيان إنسان
مريض بالحمى.

بقيت صامتاً وقد أحسست برغم بكتها بشيء من
الارتياب وصفاء الذهن. أحضرت لي شراباً مهدئاً من نقيع
الأعشاب، وقادتني من يدي إلى الفراش لكي أنم وأرتاح.
عاملتني كطفل عايش يقول هدراً لا معنى له فلم أعترض أو
أقاوم. وفي الصباح أرسلت لي الحكيم جلال الدين الذي جاء
مبكراً يوقدنني من نومي ويأخذنني في نزهه بين بساتين
القصر فائلاً بأنه طاف بلاداً كثيرة مبعوثاً من أمراء عقد
المرجان، ذهب شرقاً حتى ظن أنه وصل إلى المكان الذي
تشرق منه الشمس، وقطع الصحاري والبحار إلى ممالك
بعيدة باتجاه الغرب حتى وصل أقصى أطراف الأرض، رأى
أقواماً من العماليق وأقواماً من الأفزام، رأى ممالك الأجناس
الصفراء والحمراء والسوداء، ورأى الناس الذين يركبون

الفيلة والعربات التي تجرها الكلاب ورأى أناساً يبنون بيوتاً من الثلج وأكواخاً فوق الماء، وشاهد عجائب المخترعات والمخلوقات، ولكن ما أخبرت به نرجس القلوب وقلت أنتي رأيته وعاينته شيء يفوق الوصف والخيال، ولم يأت بذكره بشر من قبل. فكرت في أن أغفي نفسي من التورط في حديث لن يستوعبه هذا الرجل مهما بلغت حكمته وفطنته، وأردت أن أعود إلى طمأنينة الذاكرة المفقودة، وأقول بأن ذلك لم يكن إلا حلماً رأيته في المنام، ولكن نفسي لم تطاوعني، لقد اغتسلت روحى بهوائهم، وتعترت بنرجس حقولهم، فلم يعد الكذب يوائيني. أخبرته لكل ما حققه عالم القرن العشرين من إنجازات علمية وتقنية، وما وصل إليه الإنسان من اختراعات في مجال الطب والصناعة والزراعة والطباعة والتعليم والنقل والمواصلات والاتصالات. أخبرته أيضاً بما تحقق من تقدم في مجالات غزو الفضاء وصناعة الحرب. منتهياً إلى تذكير هذا الشيخ بأن العلم لم يحقق برغم ذلك كله مدتيته الموعودة، ولم يفلح في توفير شروط أفضل لحياة الإنسان من الشروط التي يعيشونها، فالإنسان هناك يعيش مهدداً بالفناء في أية لحظة لأن جزءاً يسيراً مما في

مخازن حكامه من أسلحة يكفي لتدمير الكرة الأرضية في
غمضة عين.

إن معجزة هي التي نقلتى من ذلك العالم وأوصلتى
إلى مدينتهم، وأنا لست نادماً على هذه الرحلة، بل أنتى سعيد
بالتجربة المثيرة المبهجة التي أعيشها، فيها أنا التقى ببشر
تمنيت دائماً أن التقى بهم وأعيش مجاوراً لهم، لأرى عن
قرب هذا الإنسان الذي تحرر من الخوف واكتشف الامكانيات
الكامنة فيه، وأيقظ الإله النائم بداخله، فحقق تواصلاً مع روح
الكون أتجاه من أمراض المجتمعات التي تلتصق بالأرض
رغم آلاتها التي تدور في السماء، ورغم أنها تتقدم عنه في
الزمان مسافة مقدارها ألف عام. ولا أدرى لماذا تطور العالم
بهذا الاتجاه المناقض لجوهر الإنسان الإله، قائلاً للشيخ بأنه
لو كان الأمر بيدي لأعدت العالم كله إلى مدينتهم يتعلم منهم
المعنى الحقيقي للحياة والأسلوب الأمثل لتمجيدها والاحتفال
بها. سألنى الشيخ بعد أن أنصت باهتمام واستغرق إلى
كلامي، كيف تأتى لي أن أطوى الزمان وأعود إليهم محملًا
بهذه المعارف والأفكار. فأنبأته بقصتي مع الشيخ الصادق أبو
الخيرات، صاحب الولاية والأسرار الذي استخدم علومه

الروحية وأتاح لى هذه المكرمة، رأى متبرماً بحياته هناك،
نافراً من وجودى بين أولئك القوم، يائساً من أحوال الدنيا،
تسحقى الملالة وتنقل بدنى وروحى أمراض الاغتراب
والكآبة، شغوفاً بعوالم الفرح والغبطة التى فرأت عنها في
أساطير نسمتها ألف ليلة وليلة، فجاء يكشف عنى الحجب
ويطوى تحت أقدامى الأرض ويفتح لى كوة في جدار الزمن
وينقلنى بمعجزة الإلهام والقدرة الروحية هذه النقلة المباركة
من عصر إلى عصر ومن مكان إلى مكان ومن حالة إلى
حالة، ويختار لى هذه المدينة التى اكتملت زينة الإنسان فيها
وتحولت حياتها إلى عرس يتجدد مع مطلع كل شمس.

ظننت أن الشيخ سوف يتملكه الذعر مما أفضي به
من أسرار لا تتفق مع منطق الأشياء، ولكنه ظل صامتاً لا
يبدى انزعاجاً ولا يقول كلاماً وإنما يداعب بأصابعه أطراف
لحينه مستغرقاً في التفكير والتأمل. كانت طيور الحديقة قد
استيقظت من مراقدها وجاعت ترفرف بجوارنا وتواصل
عزف أنشيدها، والأعشاب التى بلالها الذى تصدر هسhestها
اللذيدة تحت أقدامنا، وجاء من أقصى المدينة صوت ناي
يحمله النسيم، فبدا الكون جميلاً يعبق سلاماً وسكوناً. رأيته

صامتاً متأملاً فقلت له بأننى شديد الأسف لأنى لم أخبرهم بهويتى منذ أول يوم لوصولى، ولم يمنعنى من ذلك إلا أعرافهم وطقوسهم التى أرادت أن تعفى الأمير الجديد من الكدر والحرج فاللزمته بالسكتوت عن الماضى، ولكنى وجدت في قصتى شيئاً لا يجوز السكتوت عنه وقد تجعلهم بعيدون النظر في هذا المنصب الأميرى الذى آثرونى به على أنفسهم. وسأكون منذ الآن سعيداً إذا قبلاوا بي مواطننا بسيطاً ينتمى إلى مدينتهم، أما الإمارة فلا أعتقد أن مدينة وصلت إلى هذا التوافق والانسجام في نظامها تحتاج إلى أمير مثلى يأتي من عصر آخر لكي يحكمها.

كنت صادقاً فيما عبرت عنه من زهد في الإمارة التي لم تعد مدينة عقد المرجان بحاجة إليها. كل ما كنت أخشاه هو أن أجدهم يعيدوننى إلى الصحراء، مطروداً من أرضهم، يقتلنى القبطان والعطش، وتهش لحمى الطيور والثعابين. فهل ترانى كنت أحمق عندما غامرت بقول الحقيقة؟. ها هي الأميرة تعتبرنى مريضاً أو مجنوناً فتأنى بهذا الشيخ الذى أسمهم في تربيتها وتعليمها كى يسمع قصتى ويبحث عن علاج لمرضى، فلماذا يظل صامتاً ينظر في الفراغ بوجه

خلا من أى تعبير؟ رأيته يخرج بعد لحظات عن صمته لا ليتحدث عن مرضى، وإنما ليسألنى أن أزيده علمًاً بهذا العالم الذى شاهدته وعرفته. عن نظم الحكم فيه وقواعد التعامل بين الناس وطبيعة العلاقات بين الدول، وأن أشرح له ما غمض عليه من كلماتى عندما وصفت الأرض بأنها كرة قابلة للانفجار وعن هذه الأسلحة التى تستطيع تفجيرها. وجده يأخذ كلامى مأخذًا جادًا ويسألنى كأنه يفتش فى روایتى عن أدلة تثبت صحتها. أجبته بحماس لما أراد، وأخبرته بما يتفق العصر من مذاهب وأنظمة تدعى جميعاً القرب من تحقيق أمل الإنسان فى العدل والسعادة والسلام. وعنقطبين الكبارين اللذين يحتمان فى صراعهما إلى توازن الرعب، فهذا التكافؤ فيما يمتلكانه من قوة الدمار الناتجة عن استخدام الطاقة الذرية هو الذى يمنع نشوب حرب ستؤدى إلى فناء البشرية. أخبرته أيضاً بما حدث من تطور للعلوم والفنون وأقطاب الفكر والفلسفة والرسم والأدب والموسيقى، وعن تقدم المعمار والبناء الذى صار يصل إلى مئات الطوابق كى يستوعب ما بلغه العالم من كثافة سكانية، وعن اكتشاف قانون الجاذبية، وكروية الأرض وما نتج عن تطور

الرياضيات والعلوم والفلك والفيزياء من أفكار جديدة عن الزمان والمكان والحركة والمادة والضوء مما أدى إلى وصول الإنسان إلى انتاج أكثر الصناعات تقدماً وأكثر الأسلحة فتكاً. ثم أخبرته بالثورات والانتفاضات والحروب الأهلية والدينية وما يهدد الأرض من آفات شح الموارد وتلوث البيئة وتقنية الحرب. كان يسأل كثيراً و كنت أجيبه بما أعرف، إلى أن انقضى النهار وحان موعد تناول الغداء. فسألته عندما رأيته يعود إلى صمته عما إذا كان يصدق ما أخبرته به. أجابني بأنه وصل مرحلة من العمر تجعله يوقف بأن أي شيء يمكن أن يحدث، لقد عاش طويلاً وشاهد وسمع وقرأ تاريخ الأمم، مما عاد يدهشه أمر هذه الخوارق والمعجزات التي تحدث للبشر. إنه لا يجد سبباً يدفعني إلى تلفيق حكايات مثل هذه، ولا يعتقد بأنني مهووس أو مريض بالحمى، فما أقوله من كلام لا يقوله إلا من كان واثقاً مما سمع ورأى وعايش معيشة شخصية. إنه يصدق بأن ما رأيته هو فعلاً عالم الغد، ويعتقد بأن ما حسبته حياة عشتها هناك لم تكن إلا رؤيا من تلك الرؤى التي يشاهدها أصحاب البصيرة النافذة. ومن فرط صدقها ونفاذها إلى قلب الحقيقة

ينسى صاحبها كل شيء عرفه وعاشه قبلها. تمتلئ الذاكرة
بهذا الفيض وتدفع بكل شيء آخر إلى مناطق النسيان حتى
يظن صاحب الرؤيا أن حياته ابتدأت بها. وهو يذكر قصصاً
كثيرة عن أصحاب بصيرة وكرامات من أهل الماضي
استطاعوا الرحيل إلى الزمن الذي جاء بعدهم وتتبئوا بأحداثه
وكأنهم شهود عليه، وآخرين رأوا أنفسهم يصعدون إلى
السماء و جاءوا ينقلون صورة عما رأوه من برزخ وأنوار
وأعراس تقام فوق النجوم وما سمعوه من أناشيد وغناء وما
التقوا به من ملائكة وأنبياء. وما أقوله الآن ليس إلا كلام
رجل كشفت عنه الحجب ورفعت من أمام عينيه سجف
الزمان وظلماته فرأى ما رأى وسمع ما سمع وكأنه واحد من
أهل ذلك الزمان. لم أجد سبباً يدعوني إلى أن أجادله في هذا
التسخير، يكفي أنه امن بما قلت ولم يجده دليلاً عته وجنون.
إنه رجل تربى في رحاب أهل التصوف وعاش محاوراً لهم
وقارئاً نهماً لأشعارهم وأسفارهم إلى الممالك الإلهية، فلا
عجب أن يجد لروايته مرجعاً في هذه الحصيلة من معارفه
الصوفية. ما يهمنى الآن هو أننى كاشفتهم بحقيقة ما حدث

معى وتحررت من هذا العبء الذى كان يعطل استمتعنى
بالحياة الجديدة.

كانت نرجس القلوب عندما عدنا إليها ما تزال مهمومه
لم تغادرها حالة الفزع، سألها الشيخ أن تنهض وتعانقنى، لأن
ما قلته ليس إلا بشائر سعد أهلت على المدينة. إن معجزة
تحققت على يدى وأقداراً عليا اختارتى للسفر إلى المستقبل
عن طريق الكشف والرؤيا ثم قادتى إلى أبواب هذه المدينة
لكي تستفيد من المعارف العجيبة التى تزودت بها.

أفرزعتى فكرة أن الشيخ يريد توظيف خبرتى في
تطوير هذه المدينة. أتنى لا أستطيع أن أخترل خبرة ألف عام
من جهود العلماء والمجامع العلمية لكي أصنع له مصباحاً
كهربائياً واحداً، إذا كان هذا ما يقصده، وفيما يتصل بالنظم
والسلوك والمعاملات والقواعد التى تحكم العلاقة بين الناس
فإنه لن يجد مدينة فى الكون تضاهى مدینتة. إنه ليس بحاجة
إلى تلك الآلة مهما كان نفعها، وليس في حياة الناس هنا
ضرورة لها أو تحدياً يوجب اختراعها، وإنما لجاء ذلك نتيجة
طبيعية لتوفر الشروط والمعطيات لظهورها. فليصرف النظر
عن هذا الفضول الذى لا معنى له، وليعلم أن اختراع السيارة

بكل منافعها لا يساوى عدد الضحايا الذين يموتون بواسطتها كل يوم. كنت وأنا أطوف شوارع المدينة مشمولاً بيهاه النقوش والزینات والزخارف، وشفافية الماء الذي يحمل البحع والقوارب، مفتوناً بحركة الضوء فوق حدائق الورد وحقول العشب وذواقي الشجر، غاطساً في أنوار الغطة الصاعدة من الميادين التي تشرب من نوافيرها الطير، مأخوذاً بتنفسة عطر من شعر امرأة تمرق بجواري أو رفيق أجنحة قبرة أو قطة تحط دون وجل على طرف المقدد الذي أجلس فوقه، اختلط بالبشر الذين يختلفون إلى الساحات والحدائق ويمليئونها فرحاً وموسيقى، أو أولئك الذين يعزفون الأرض أو يجنون المحاصيل أو ينسجون ثواب الحرير أو يتجلولون في الأسواق، كنت أحس بتوacialن باطنى عميق، مع كل ما ينبعض به المكان من حركة وما يفيض به من بهاه، وكانت على يقين بأن ما يربط بيني وبين مظاهر الحياة في هذه المدينة علاقة تتجاوز علاقة الرائي بما يرى، أو انفعاله بما تستقبله الحواس وتتلقاه العين من مشاهد قادمة إليها من خارج الذات. وكنت أتساءل كيف لمدينة مهما كان جمالها، أن تبعث في النفس احساساً بالبراءة الأولى وتكون مصدراً

لهذه الشفافية التي تنتهي إلى مدن السماء لا إلى مدن الأرض، وأجد راحة عميقة عندما أقول في خاطري بأنني اهديت إلى مفاتيحها السرية، وإن هذه المدينة إنما تتبع من حلم رأيته، فما علاقتي بها إلا علاقة مبدع بالصورة التي أبدعها خياله، وما أنا إلا صاحبها الذي أنشأها من خميرة التوقي الإنساني إلى الينابيع التي يرتوى منها القلب، أنا الذي أشاد هذه الشوارع والميادين والأبنية والشرفات التي تصيّرها القناديل والأغانيات، وصنع لها سقفاً من سماء صافية الزرقة عامرة ببهاء الأقمار والنجوم. أنا الذي شق قنوات الماء وغرس الأشجار وعرائش الكروم، وملأ المدينة برجال أصحاء ونساء متورّدات الخود، وأنا الذي زرع هذه الفرحة فوق وجوههم وأضاء بقيم الخير والمحبة قلوبهم وصنع لهم هذا النظام الذي ينبع من ذواتهم ويحكم سلوكهم ومعاملاتهم، أنا الذي رسم هذه النقوش ونسج هذه الأنوار من حرير القلب وزبرجد الروح، وأنا الذي أفرغ المدينة من الهموم والمشاكل والشره والطمع والغرور والتلوث وأسلحة الفتك والدمار وحصنها بالجبل والبحيرات وأطلق في سمائها عصافير الهدوء والأمن والسلام. وإذا كان الإسکافي ذو اللحية

المصيغة بالحناء الذى صنعته ليكون رمزاً لحكمة الأجيال
قد جاء مدفوعاً بشهوة القوة والحمية الوطنية يريد أن يستقيد
من معارف العصر الذى تركته خلفي فما ذلك إلا عصيان
لسلطة الحلم وخروج على هذا التصميم الذى أرددته لعقد
المرجان، وسوف يفسد بفضوله هذه المدينة التى لم تخرج
إلى الوجود إلا بعد أن اكتملت عناصرها ونضجت فكرتها
في مخيلتي. لقد جئت إلى هذه المدينة هارباً من أقسام الروح
وتلوث المدن والصراع المدمر على الرزق والسلطة وتقنية
الحروب وتجارة الموت، ولن أسمح لأية فكرة طارئة، دخلة،
هجينة، أن تفسد هذه الصورة، وإلا ضاع الحلم الذى تجسد
حقيقة فوق الأرض وتبخرت مدinetه في الهواء.

ذهبت بصحبة نرجس القلوب إلى مبشرة عمل من
أعمال الإمارة وهو استقبال قافلة جاءت من شيراز محملة
بأصناف من الأقمشة والسجاد العجمى وقوارير الطيب مع
عشرين جارية من أملح نساء الفرس. استقبلت المبعوثين في
الديوان وتقبلت هدية أميرهم شاكرأ وأبلغته رسالة تقدير
وامتنان رداً على رسالته وأجبته إلى طلبه وهو إرسال بسلام
اشتهرت به عقد المرجان يزيل المضاعفات الناتجة عن برد

العظام. وجاء أحد المناوبين للحراسة بالبلسم كما جاء بطبق
ملئ بالمرجان هدية لأميرهم. ذهبو للاستراحة بالخان
المخصص لضيوف البلاد، وسألت نرجس القلوب عما
يفعلونه بالجوارى فأبلغتى أنهم يبعثون بهن إلى المؤدبين
والملعبين من أجل إعدادهن للعمل مشرفات على دور
الحضانة أو مشتغلات بالتمريض أو عاملات في المزارع
ومشاغل التسييج. كانت بينهن واحدة فارعة الطول، معقدة
الحاجبين، حنطية البشرة، تتجذر بها وأنوثة، تمنيت لو أن
تقاليد المدينة تتيح للأمير أن يمتلك جارية مثلها كما يفعل
حكام ألف ليلة وليلة، فهي امرأة مثيرة للرجلة بما تملكه من
جاذبية جنسية، وجسد مكتنز عامر بالثمار الشهية، ولكننى
حاربت هذه الرغبة في نفسي مستمدًا من نرجس القلوب عوناً
على مغالبة الضعف، والامتثال لنوايس هذه المدينة التي لا
تتيح لامرأها إلا ما تتيحه لكل فرد من مواطنها.

كان الإسکافي الشيخ ما زال متحمساً لتوظيف ما نقلته
له من معارف ومعلومات في إنتاج شيء تتميز به عقد
المرجان عن بقية الممالك والأمصار. قلت له أنتي للأسف
البالغ لا أملك معرفة بالهندسة والرياضيات ولا أملك عقلاً

يستوعب العلوم الطبيعية. إنني رجل يتعامل بالخرافات والأساطير، ولا بد أن هذا الخيال هو الذي أفادني في عبور صحراء المهالك وأوصلني إلى مشارف هذه المدينة التي ما كنت لأصل إليها لو أتني أملك عقلاً رياضياً يتعامل بالأرقام والمعادلات والنظريات العلمية الصارمة الدقيقة. ولكن الشيخ جاء يقول بأن في المدينة رجالاً مهنيين يملكون عقولاً رياضية ولن يقتضي الحال إلا أن أحكي لهم عن بعض هذه الاختراعات وأن أبدأ بأكثرها بساطة وأقلها تعقيداً. ما هي السيارة؟ ما هي آلة التصوير؟ ما هو الهاتف؟ ما هو المسدس؟ ما هو المدفع؟. إن أي شيء أقوله عن هذه الاختراعات سوف يفيدهم وسوف يجتهدون في الوصول إلى كيفية إنجازه. وأن بإمكانهم التقاط فكرة عن إحدى الآلات التي ورد ذكرها في حديثي والوصول إلى نتيجة إذا عرفوا شيئاً عن القوة التي تسيرها، إنها تروس تدور، فما الذي يدير هذه التروس، إنها الطاقة التي تنتج احتراقاً داخلياً، كيف إن تولد الطاقة، ذكرت شيئاً عن البحار والغاز والمازوت والكهرباء، كيف يمكن الوصول إلى بعض هذه العناصر التي تخلق هذه التأثير. هذا ما سوف يفكرون به ويصلون إليه

بعقولهم المدرية على التفكير التقني والمهنى. أوضحت له بأن الوصول إلى اختراع كهذا شيء مستحيل لأنه يسبق عصره، وحتى إذا لم يكن مستحيلاً فإننى أخشى أن يلحق الأذى بهذه المدينة التى اكتملت ولادتها على هذه الصورة. قلت لنفسي بأنه كان ممكناً للقوى التى ساقتهى إليها أن تسوقنى إلى مدينة مليئة بالآلات والاختراعات، وكان يمكن لهذا السفر الذى جاء سفراً إلى الماضى أن يكون سفراً إلى المستقبل وإلى مدينة يعيش أهلها فوق محطات الفضاء ويعاشرون البشر المصنوعين من أسلاك ومعادن وأزرار، ولكنى هكذا تمنيتها وهكذا جاءت مطابقة لما أتمنى حيث تتبع القيم من نقاء الفطرة لا مما تفرضه آلهة القوة والأدمغة الآلية. ولأنها كذلك فقد التزم الإنسان فيها بهذه القيم وصار قادرًا على تطويرها بالاتجاه الصحيح لا الاتجاه الذى يفسدها ويدمرها. فلماذا لا ينسى الإسکافى هذا المشروع الذى لا يدرك خطورته ولا ينبع من حاجة المدينة وخبرتها، وينشغل بجلوده ومساميره ونعاله فهى أجدى لهؤلاء الناس من الجرى وراء أوهام المجد القادم مع رائحة المازوت. .

وَجَدَتْهُ مَتْحَسِّاً فَلَمْ أَشَأْ أَعْارِضَهُ أَوْ أَدْخُلَ مَعَهُ
صَرَاعاً لَا أَعْرِفُ نَتْائِجَهُ. أَمْطَرْنِي بِأَسْئَلَةَ عَنِ الْكِيمِيَاءِ
وَالْفِيُزِيَاءِ وَفَوَانِينِ الْحَرْكَةِ وَالْاحْتِرَاقِ وَتَكُونِ الْغَازَاتِ فَأَجْبَهُ
بِمَا أَذْكُرُهُ مِنْ مَعْلُومَاتِ الْكِتَابِ الْمَدْرَسِيِّ. كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ
أَنَّهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى قَرْنَ منِ الزَّمَانِ حَتَّى يَنْشَئُوا هِيَكَلَ سِيَارَةٍ
لَا مُحْرِكَهَا أَوْ مَاسُورَةَ مَدْفَعٍ لَا ذَخِيرَتَهُ، إِنِّي بِحُكْمِ مجِيئِي
مِنْ زَمْنٍ يَقْدِمُ كُلُّ هَذِهِ الْمَدَةِ عَنْ زَمَانِهِمْ أَدْرَكَ مَتَى تَمَتَّ
صَنَاعَةُ هَذِهِ الْآلاتِ، فَلِمَذَا الْقَلْقَ إِذْن؟ أَرَادَنِي أَنْ أَشْرِحَ
لِلْحَرْفِيِّينَ مَا أَعْرِفُهُ فَأَبْلَغْتُهُ بِأَنِّي لَا أَعْرِفُ شَيْئاً أَكْثَرَ مَا فَلَتَهُ
لَهُ، وَبِإِمْكَانِهِ أَنْ يَنْقُلَهُ إِلَيْهِ إِذَا أَرَادَ، ذَهَبَ يَطْوُفُ عَلَى
الْحَرْفِيِّينَ وَيَجِدُهُمْ لِمَشْرُوعِهِ، وَذَهَبَتْ وَحِيداً أَهِيمَ فِي شَوَّارِعِ
الْمَدِينَةِ عَلَى غَيْرِ هَدِيٍّ. اسْتَأْذَنْتُ مِنْ نَرْجِسِ الْقُلُوبِ قَائِلاً
بِأَنِّي سَأَغِيبُ بَعْضَ الْوَقْتِ فَلَا أَرِيدُهَا أَنْ تَتَشَغَّلَ أَوْ تَقْلُقَ.
كُنْتُ فِي الْحَقِيقَةِ أَخْشَى أَنْ يَنْشَأْ خَصَامٌ بَيْنِي وَبَيْنِ الإِسْكَافِيِّ
يَجْعَلُنِي أَتَرْكُ لِهِ الْقَصْرِ وَأَعْتَرُلِ الْإِمَارَةِ، فَاقْطَعْتُ وَقْتَأَ
أَفْضِيلِيَّةِ مَعِ نَفْسِي وَأَتَعْرَفُ خَلَالَهِ عَلَى أَحْيَاءِ الْمَدِينَةِ مَعْرِفَةَ
تَقْيِينِي إِذَا حَدَثَ مِثْلُ هَذِهِ الْقَطْبِيَّةِ. ذَهَبَتْ مَتْحَرِرَأً مِنْ أَثْوَابِ

الإمارة وطقوسها عازماً على أن يبقى يوماً أو يومين بعيداً عن القصر ومستشاره.

كان أهل المدينة قد بدوا يتركون أعمالهم ويخرجن إلى الحدائق والميادين لإقامة الاحتفالات كما يفعلون كل مساء. جلست على مقعد بإحدى البارات أراقب نساء ورجالاً يضعون الأقنعة فوق وجوههم ويرقصون على صوت الموسيقى رقصة الغابة. يتحولون إلى نمور وأسود وثعالب، ويتحاورون بالرقص حول إدارة مملكة الغابة. لم أتبه وأنا أراقب الراقصين إلى المرأة التي أتعبهما الرقص فخرجت من الحلقة لتسريحة، ولم أرها إلا عندما نزعت عن وجهها قناع النمر وقد جلست في الطرف الآخر من الدكة الخشبية التي جلست عليها، تمسح بمنديل أزرق حبات عرق تلألأت على جبينها. أذهلني جمال عينيها فقلت في نفسي لعل ظهور هذه المرأة المفاجئ وابتهاجها بغتها بجواري لم يكن إلا تجسيداً لرغبة راودتني هذه اللحظة. إنني بحاجة إلى مصاحبة امرأة من أوساط الناس العاديين أتعرف عن طريقها إلى جوانب أخرى من الحياة لا أستطيع أن أعرفها وأنا أرتدي ثياب الأمير وأتجول بصحبة سيدة القصر. صرت الآن أعتقد أنني

قادر على اجتراح مثل هذه المعجزات الصغيرة، وطالما أن المدينة ذاتها ليست إلا تجسيداً لفكرة تخيلتها، كما ينبعنى حسى، فلماذا لا تكون هذه المرأة السامقة، العزيرة الأدب، التي تزين مفرق شعرها قرنفلة حمراء، كائناً بديعاً أنا الذى صنعته هذه اللحظة. بدت هذه الفكرة رغم استحالتها، طريقة ومسلية، سأدعى لنفسى أننى فعلاً أوجدتها من أجل مرافقتى ومؤانستى وتعويضى عن فراق نرجس القلوب، وسيجعل هذا الإحساس مهمتى في التعرف إليها أكثر يسراً، إذ كيف أحس بالحرج أو الخجل من الحديث إلى امرأة أنا الذى خلقتها. وازدت تمسكاً بهذه الفكرة عندما رأيت أن ملامحها تتطابق مع ما أحب وأشتئى، هذا الألق القادم من عينيها المتوهجتين بألوان الفجر وأسراره الغامضة، وهذه البشرة التي تشفى وتضيء وتصبح شفقاً يحتويه إماء من البلور، وهذه الابتسامة التي تصنع عيداً للقلب وتبهرز عند ظهورها سحر الغمارتين المذابتين في صحن الشفق، وهذا الفم الذى يصنع دائرة للرغبة لا ينفذ منها إلا من شفه الوجد حتى صار شعاعاً، هاتفاً من خلال انفراجته اللذيدة بنداء ساخن ملح عاجل يبعث الحرقة في شرائين القلب، وهذا الجيد الأائع الذى يكاد من

صفائه أن يكشف عن سريان الدم في العروق، وقد انهمرت فوقه جائئ شعر كثيف ناعم يفوح بأريح الياسمين، وهذا الصدر الناهد الذي يحاصره ثوب حريري تتخلل زرقة نقوش فضية فيبدو كزبد الموج فوق بحر أسطوري. ليس فقط جمالها ما كان يثير في نفسي افعالات خالق ينسحق ويدوب تحت سحر مخلوقته، وإنما أيضاً هذا الحضور الساطع المهيمن الذي يصنع دائرة حوله يبسط فوقها نفوذه وسطوته. لعلني لم أكن أملك صورة كاملة عن امرأة القلب ولا أستطيع أن أتصور ملامحها ولكنني الآن وأنا أراها تجلس بجواري أحس بأنني ما حلمت إلا بهذه المرأة، ولا هفهفت أشرعة الفؤاد إلا إليها ولا ظهرت في مرايا الماء والسماء التي تعكس عليها خبايا النقوش إلا صورتها.

جاء الغسق، وبدأ الليل يرسل غبشاً يزحف على الساحات والأبنية والحدائق، في حين خرج عمال الإنارة يوقدون المشاعل. سألتها وكأنني أواصل الحديث الصامت الذي بدأته منذ لحظات معها:

- هل تسكنين قريباً من هنا ؟

- إنني أسكن في البساتين، خارج السور.

- هل تستطعين العودة إلى بيتك في الظلام ؟

- وهل ترى أن الجو ينذر بعواصف يتذرع معها
الاهداء إلى الطريق .

- أعني ألا تخافين ؟

- من أى شيء تریدنى أن أخاف ؟

إنى أتحدث بمقاييس عالم يختلف عن عالمها، عالم
أحمله معى إلى مدينة انتهى منها الخوف حتى أصبح كلمة
غريبة لا أحد يستخدمها. لماذا تخاف طالما أن أميراً صالحأ
قام بسجن كل الأشباح داخل غرفة سرية. إن لهذه المرأة
تجربة في الحياة زودتها بخبرة تختلف عن خبرتى ولهذا فقد
أضحت صعباً التسليم بأننى أنا الذى خلقتها، وما تقوله لا
يوجى بأنها جاءت إلى الدنيا منذ دقيقة واحدة فقط. سأجرى
تعديلاً طفيفاً على الفكرة، وسأعتبر أن إرادتى هى التى
استدعتها إلى الحضور وأرغمنتها على الخروج من بيتها
والمجيء للقائى في هذا الموعد وهذا المكان.

- أقصد ألا تخافين الوحش ؟

- وهل هناك وحوش غير تلك التى تعيش في
الأدغال ؟

أعرف جيداً أن الوحش الذى يعيش على أبواب طيبة قد انتحر عندما وجد إنساناً يعرف الجواب، فلماذا طرح الأسئلة التى انتهى منها البشر. قلت قبل أن ينتشر الذعر بين الناس نتيجة كلماتى التى تفصح جهلى بأحوال هذه المدينة:

- فكرت أن نترافق في طريق العودة إلى الحقول.
— هل تستطيع الانتظار؟
— نعم.

جانبى الطريق تنشر لهاث صوئها الذى اختلط بالعتمة وظلل الأشجار. غمرنى إحساس بالألفة وأنا أمشى بجوارها فخطر لى أن أسألها إن كانت امرأة متزوجة، ثم عدت عن السؤال عندما تذكرت أن النساء في عقد المرجان لا يتزوجن عادة في هذه السن، إنها مرحلة العلاقات الحرة التى تسبق الارتباطات الزوجية وتربية الأطفال والانشغال بالحمل والرضاعة ولذلك فإنهن يتأخرن في الزواج إلى سن الثلاثين، بينما هي لا تزال في أوائل العشرينات من عمرها.

- هل تعيشين مع أسرتك؟.

- نعم، وأبى وأمى ينتظرنى الآن ولا يتراولان العشاء حتى أعود. إننى ابنتهما الوحيدة.
وأنا الابن الوحيد لزمن لم يأت بعد، فكيف أقدم لها نفسى؟.

تتاهى إلينا صوت عزف يأتى من وراء أحد الأبواب فأخبرتني بأن هوايتها هي الموسيقى وأنها ترك مشغل الملابس الذى تعمل به وتذهب لأخذ دروس في العزف. ثم فاجأتني بالسؤال عن مهنتى. قلت لها بأننى جئت حديثاً إلى مدينتهم، وأننى تخلفت عن العودة مع القافلة التى أوصلتنى

لأنى أحببت أن أقيم بينهم وأفكر في عمل يتفق مع تجاري
السابقة في البستنة وغرس المشائط.

- إذن فأنت تقيم بخان المدينة.

- مؤقتاً.

- ولماذا أتعبر نفسي بالمجيء من هذا الطريق؟

- لمجرد النزهة والاستمتاع برفقة لا أجد لها في فندق
العرباء.

- ما رأيك أن تبقى معنا هذه الليلة وتكون ضيفنا على
العشاء؟

فاجأتنى البساطة التى قالت بها كلماتها. رحبت بهذه
الدعوة التى جاءت بحسب ما أشتهد وكأننى أنا الذى وضع
الكلمات فى فمها. وصلنا إلى بيتها وقدمنتى إلى والديها.
برغم أنهم يقتربان من سن الشيخوخة إلا أنهمما يتدفقان
نشاطاً، كان العشاء لحوماً مقددة أعيد تسخينها، وأطباقاً من
الخضار المسلوق وسلطات الجرجير والخس والبقدونس.
شاركتهم العشاء كما شاركتم الشراب عندما أحضرت الأم
زجاجة نبيذ خاتر معتق، عرفت أنه من مخزون العائلة الذى
لا يقدم إلا في المناسبات. كان الفضول لمعرفة تفاصيل

حياتهم يدفعنى إلى أن أتجه بالحديث نحو هذه الوجهة. عرفت أن الأب والأم أيضاً يعملان، ترك الرجل العمل بمقالع الحجارة وإعداد الطوب للبناء وتركت الأم العمل بالحصاد وجنى المحاصيل، وتفرغ كل منهما لعمل يتاسب مع سنه وهو يحياته، فالأب يربى النحل في حديقة البيت وينتج عسلأً يرسله إلى مراكز التوزيع، ولأنهما يملكان في الحديقة عدداً منأشجار التوت فقد استعملتها الأم في إطعام دود القز وانتاج الحرير. طاب لنا السهر وتركوا لي أغلب زجاجة النبيذ. وجاءت نشوة هذا الشراب البالغ الدسامية تتسينى حالة القلق التي أخرجتني من القصر. أحضرت الفتاة عوداً عزفت عليه وعند غناءً يشبه الموشحات الأنجلوسaxonية. كنت قد عرفت أن اسمها بدور وأخبرتها بأن اسمى خليل لأننى اشتقت لأن أسمع كائناً جميلاً مثلها ينطق هذا الاسم قبل أن يندثر من الوجود. كانت بدور وهى تعزف عودها تسبل رموش عينيها وتحنى رأسها فوقه وقد تهدل شعرها الأسود يغطى جانباً من وجهها وتلامس أطرافه الأرض فتبعد الموسيقى وكأنها قادمة لا من أوتار العود فقط ولكن من شعرها ووجهها وقوامها كله. سألونى أن أنسد لهم شيئاً من محفوظاتى فغنية المقاطع

الأولى التي أذكرها من أغاني سيد درويش. كانت هذه الأغاني غذاء لغربتى في صقىع المدن الشمالية وها هي اليوم تعود إلى الذاكرة في زمن سبق زمن مؤلفها بتسعة قرون. أعجبتهم الأغاني برغم كلماتها التي تختلف عن أسلوب نطقهم لها، وتأخر بنا الليل فذهب الرجل وزوجته إلى النوم بعد أن رحبا ببقائى في بيتهما هذه الليلة. اصطحبتى بدور إلى غرفة نومها وأعدت لى فراشاً في ركن من أركانها وأحضرت لى جلباباً للنوم. ولم تجد حرجاً في أن تخلع ملابس النهار في حضورى وترتدى قميصاً شفافاً يظهر تورد بشرتها ونقاء جسمها وتفاصيله الأنثوية، دون أن يعنى ذلك ما تبادر إلى ذهنى من أنه دعوة إلى المعاشرة وإنشاء علاقة أكثر من علاقة الود بين ضيف ومضيفه، لأنها تركتى أنام في فراشى وأطفأت القنديل عائدة إلى فراشها. اكتشفت في الصباح أن للغرفة نافذة تطل على الحقول التي تترامى باتساع الأفق والتي تفضى إلى مشهد البحيرة والشلالات المنهمرة من رواب خضر، ومن خلف الربى انبثقت قمة جبل تغطيه الثلوج. كان المشهد ينبض بجمال الصبح، وكان المدى يضج بثراء الزهور والعشب ونرات الفضة التي يصنعها

الندى، والهواء يتدفق عبر النافذة مغسولاً بالشذا والعتبر. وكانت أثني الربيع تستيقظ الآن من نومها. لن يضيرني أن أبقى هنا بضعة أيام بصحبة هذه المرأة التي أرسلتها لى آلة الحلم. سأحاول أن أكون نافعاً لأهل هذا البيت، جديراً بصحبتهم، ومستقدياً من خبرتى في العمل بحدائق القصر انهمكت منذ أول يوم في العمل بستانياً معهم، أشذب أشجار الحديقة وأسقيها وأقتلع الأعشاب الطفيلية من أرضاها. وجدت حوضاً للأحياء المائية مقاماً بالحديقة فتوilih تنظيفه والاعتناء بتغذية أسماكه. طلبت أن تنسع قلوبهم لاستضافتى بضعة أيام حتى أتعلم منهم الحرف الذى يجيدونها، فاستجابوا إلى طلبي ودعونى للمشاركة في إنجاز الأعمال التي يقومون بها، ونقل إنتاجهم إلى مراكز التوزيع، والذهاب معهم في ساعات الراحة إلى النزهات التي يقومون بها إلى الحقول القريبة من الروابى وشلالات الماء، حيث يقطفون الأزهار البرية، ويفترشون الأعشاب، ويتناولون طعامهم بصحبة الطيور التي تدرج بجوارهم. وعرفت أثناء مصاحبتي لهم كيف أنهم يعتبرون تقدير الطبيعة والتمتع بها جزءاً من وجودهم الروحى، وعافيتهم النفسية والبدنية. يندمجون مع إيقاعها،

ويرقبون حوار ضوئها وظلالها، وينشئون علاقة حميمة مع زهورها وطيورها وأشجارها ومياها، كدليل على هذه الوسائل التي تربط الإنسان بمحیطه وبيئته الطبيعية. أمضى بصحبتهم، أرقب هذه المشاهد بانفعال طازج ساخن، واغترف من هذه العالم بكل ما تتيحه حواس البصر والسمع والشم والذوق واللمس من متعة واندماج. وجدت مداركى أيضاً تفتح على فهم مظاهر الطبيعة، وما يحدثه ذلك من أثر في نفسي، وما يتحقق من انسجام بين الموسيقى الخفية التي يعزفها الكون، والموسيقى الداخلية التي تعزفها الجوارح والأحاسيس، فهو لقاء يطرد النغمة النشاز، ويوقف ملكات وطاقات حسية وروحية، ويرتقى بالمشاعر والعواطف لتكون قادرة على مقاومة الانهيار تحت تواتر الأيام ورتابة الأشياء المعتادة. أحمل عباء نشوتى، وأقف فوق الرابية أتأمل تحولات الضوء وتموجاته فوق اختلالات الماء والعشب، واحتقى بما أراه من نباتات ذات عطر وألوان، وما يطرأ عليها من غبطة وشجن، وإشراق وشحوب، وفقاً لكل أقنيم تنتقل إليه الشمس، ولا أكتفي بالنظر إلى زهورها وبراعتها، وأوراقها، وإنما أتأمل اللحاء الذي يغطى سيقانها وأغصانها،

فهو أيضاً يقول شيئاً عن طبيعتها، وأنظر بعين جديدة إلى صخور الجبل وما ترسمه فوقها عوامل الريح والتعرية من تكوينات غريبة وأشكال نحت هلامية، وكأن لهذه الصخور لغة سرية تخاطب بها الكائنات. وأتأمل للحظات طويلة غصناً كسرته الريح، فتجمعت عند موقع الشرخ أتربة أثبتت زهرة طالعة من قلب الغصن المكسور، لها تاج بلون الذهب الأحمر، فأركض إلى بدور أخبارها وأسحبها من يدها لترى هذه المعجزة الصغيرة التي تفتق عنها حكمة الزهر والشجر، فائلاً لها بأن هذا هو البرهان على صدق ما ترويه أسطورة الخلق عن انبات الأنثى من ضلع الرجل المكسور. كنت أترك البيت أحياناً دون هدف إلا هدف الاستماع بالطبيعة في جلالها الباهر أو الحديث إلى أناس أفلبهم صدفة، فيقبلون بي ويحتقون بالحديث إلى، رغم أنهم لا يعرفونني، مزارعين وحطابين وصيادين في طريقهم إلى الغابة وأصحاب مراكب صيد، ونساء عاملات بالحقول، ثم أختار ركناً على ضفة البحيرة تنمو فيه أشجار صفصاف تهدل شعورها الخضراء تلامس الماء، يذكرني منظرها بأعراض الباية التي شاهدتها في طفولتي المبكرة، عندما

كنت أرى النساء يرفعن الأغطية عن شعورهن التي تهدلت أمام وجوههن في رقصة النشيخ، يستيقظ المشهد القديم في ذاكرتى، وأنتبه إلى أنها صارت ذاكرة انتقامية لا تستحضر من الماضي إلا ما كان متفقاً مع بهجة الزمن الجميل الذى أحياه. أجلس هناك فوق العشب أقرب الشمس الغاربة وألوانها الذائبة في مياه البحيرة وانتظر بدور التى تطورت علاقتى بها فصارت ترافقنى في جولاتى عند انتهاءها من العمل، أو تأخذ نصف يوم إجازة نذهب أثناءه في رحلة لسلق الجبل، ومشاهدة المدينة من ذروته العالية. كانت تحب زهور الأكاسيا، فتعود بحزمة منها وحزمة من عراجين الفل واليلاسيمن تملأ بها مزهريات البيت، وتزين بها شعرها في الاحتفالات التي تقام أثناء الليل. وجدتها ذات ليلة تضع عطرأ في فراشها، فعرفت أن العلاقة بيني وبينها وصلت إلى مرحلة أكثر عمقاً وحميمية. حدث ذلك بعد أن عدنا من مغامرة سلقنا خلالها الجبل ووجدنا نبع ماء ساخن يتفجر بين الصخور. لم تكن بدور قد رأت هذا النبع من قبل ففرحت باكتشافه، ودون أن تقول شيئاً، نزعت ثوبها وسارت عارية تتلألأ كموجة من الضوء حتى دخلت تحت مياه النبع تعانس

وتضحك وتعبث بالماء وتذلك العنق والصدر والخصر والردين، وتسألنى أن أدخل الماء مثلها، وقفت خائعاً ذاهلاً أرقب الجسد الممجد يؤدى طقوس الاغتسال، وأملاً بصرى من مشهد الماء الذى يتفرق فوق جسد كالنار. كان الطقس في تمام اعتداله وكان المكان خالياً تحف به أشجار تين وزيتون، أغرانى هذا التواطؤ المبارك بالمخاطرة، فخلعت أنا أيضاً ثوبى ودخلت مثلها تحت مياه النبع الساخنة، وكأننى أدخل طقساً يطهernى ويعيد خلقى ويتولى اعدادى لمهمة جليلة، ولم أعرف هذه المهمة إلا عندما ضمتا غرفة النوم ليلاً وجلست فوق السدة بجوارها فمنحتى بهجة فمها وأغرقتى في لجة الفرح الذى يصبح به صدرها وأدخلتني إلى الغرفة التى خبأت بها أسرارها وكتوزها فصرنا بعد تلك اللحظة عاشقين يستخدمان فراشاً واحداً كلما جاء موعد النوم. لم أنس المهمة التى تركتها في القصر ولا المرأة التى تنتظر عودتى، ولكنى وجدت أن هذه الحياة البعيدة عن طقوس الأمراء تتلاעם مع طبى وتكوينى، فصرت أرجئ عودتى إلى القصر يوماً بعد يوم، دون أن أعرف كيف ستطاونى

نفسى على هجر هذه المرأة التي القت شباكها على طائر القلب وأخذته أسيراً. قلت لها ونحن نتجاوز في الفراش:

- هل تؤمنين بحب يدوم إلى الأبد؟

- أؤمن بالحب، ولكن ما هو الأبد؟

لماذا يجعلنى ضعفى أنسى جمال هذه اللحظة وأذهب هائماً أصطاد المشاكل في أودية المجهول. انها لحظة تستحق أن أقبض عليها جيداً لكي لا تسرقها متأهة الأبد التي لا أحد يعرف لها حداً.

- إينى لا أستطيع أن أمنع نفسى من التفكير في اليوم الذى نفترق فيه.

- ولماذا تفكك في الفراق؟

هل أقول لها بأننى أخفيت عنها هويتى وأننى الرجل القادم من الصحراء الذى عينوه أميراً وزوجوه الأميرة، وأن هذه الهوية ذاتها تحفى تحتها هوية أخرى تمتد في المستقبل ألف عام. هل أبدأ بكشف هذه الرفائق من الهويات والانتماءات. ولكننى فعلاً مهموم لفراق هذه المرأة المصنوعة من أزهار الحلم، وهذه العائلة التي حفت لي تواصلاً اليها وحنوناً مع العائلات التي تجاورها، وعمقت

معرفي بالمدينة التي صرت أنتمى إليها. لم أشاهد احتفالات تقام للزواج، فالعرس غالباً ما يكون جزءاً من الاحتفالات العامة التي يقيمها الناس كل يوم، يخترعون لها شتى المناسبات، ويقيمونها احتفاء بكل مظهر من مظاهر الطبيعة وعناصرها، وكل نوع من أنواع الزهور والفاكهة، وتمتد بعد أيام العام. عرفت أيضاً أن الموت هنا لا ترافقه ماتم ومناحات، فهو في عرفهم صعود إلى السماء واتحاد بروح الكون وانتقال للمعيشة بين النجوم، ولذلك فهم يعطون موتها بالزهور ويدفونهم في صمت، حيث يأخذونهم إلى منطقة خضراء يواريها الجيل يودعونهم أرضاً. ولأنهم لم يصلوا إلى عصر الفوّاجع التي تصنعها وسائل النقل الآلية والأسلحة التي تتججر ناراً. وأنجتهم طبيعة الحياة التي يعيشونها من هول المعارك والأوبئة والمجاعات، واحتقى السباق اليومي من أجل الرزق والنفوذ، الذي يصيب القلب بالإرهاق ويصيب الروح بالانهيار، فقد صار الموت الفاجع الذي يفاجئ الإنسان قبل موته شيئاً نادر الحدوث. جاء والدها يسألني إن كنت أريد أن أبعث برسالة إلى أحد الذين انتقلوا إلى رياض السماء من أهلي، لأن جاراً طاعناً في

السن ينام في فراشه استعداداً للرحيل، وسوف يزورونه برسائل إلى العالم الآخر. تذكرت قصة فرأتها عن وجود امتداد لهذه العادة في بعض مناطق العالم الذي جئت منه، وفكرة أن أذهب لأبعث برسالة إلى والدي، ولكنني تذكرت أنني أعيش في عصر سبق ميلاده، فاعتذررت عن الذهاب لزيارة الرجل المحترم، وعدلت عن الاستفادة من خدماته. بقيت لمدة أسبوعين أرجئ العودة إلى القصر، إلى أن وجدتهم في بداية الأسبوع الثالث يكتشفون مكانى ويعيدوننى إليه. كنت خلال هذه المدة أتجنب الذهاب إلى الساحات القريبة من القصر لكي لا ألتقي بأحد الذين يعرفوننى، كما تجنبت المرور قرب دكان الإسکافي جلال الدين، وبرغم هذه التحوطات وجدت نفسي وجهاً لوجه أمام الشيخ ذى اللحية المصبوغة بالحناء. كنت قد جئت بصحبة بدور لحضور الاحتفال بعيد الماء، فهو عيد من أعيادهم الكبيرة، يقيمونه لاحياء ذكرى عادة قديمة عندما كان أسلافهم يأتون كل عام بصبية في ثياب العرس ويقدمونها فربماً لكتنات البحيرة مقابل ما تتيحه لهم من أسباب الرزق والمعيشة. انقرضت منذ أزمنة مضت هذه العادة، لكنهم داوموا على احياء عيد

الماء بعد أن أبدلوا الصبية بتمثال لعروس مصنوعة من الزهور. لم أعرف إلا بعد أن وصلت إلى هناك أن الأمير سوف يأتي ليقود طقوس الزفاف ويرمى بالعروس وسط الماء. كان الناس يتجمعون حول التمثال، وكانت بدور سعيدة لأنها وجدت لنا موقفاً فريباً نستطيع أن نرقب منه مراسم الاحتفال ونشاهد الأمير عن قرب. كنت محرجاً لا أدرى إن كان من واجبى أن أتقدم معرفاً بنفسى، أم أترك الحفل وأمضى، أم انتظر لأرى ماذا سيفعلون. بدأ الناس يعبرون عن استغرابهم لغياب الأمير وأردت أن ألمس طريقاً للخروج هارباً من حرج الموقف، عندما وجدت يداً تمسك بذراعى، والإسكافى جلال الدين يسحبنى من يدى. ويسألنى أن أتولى طقوس القاء التمثال في البحيرة. أردت أن أعتذر لأننى لا أرتدى ثياب الإمارة، ولا أضع فوق رأسي جوهرة الحكم، ولكنه لم يعبأ باعتذارى، أو يبالي بالملابس التي أرتديها. ووسط دهشة الناس الذين يحيطون بي، واستغراب بدور الذى كانت بجوارى ترى وتسمع ما يدور من حديث بينى وبينه، قادنى حتى أوقفنى بمحاذاة التمثال هائلاً بصوت جهورى:

- نصر الله الأمير.

ردد الناس من خلفه الهاتف وتعالت صيحات الابتهاج وأعلن الشيخ عن بداية الاحتفال. قام بقراءة الأدعية والأوراد التي تنتهي بمقاطع يرددوها معه الحاضرون تمجیداً للماء واعترافاً بفضل البحيرة والينابيع التي تغنيها، على حياة الناس. ثم امتدت الأيدي تحمل معى التمثال عالياً حتى يراه من وقف في آخر الصفوف. ووسط الغناء والأهاريج وضرب الطبول القينا بالتمثال في الماء ليقى طافياً فوق سطح البحيرة. انتهت مراسم الاحتفال وأراد الشيخ أن يعيدينى مباشرة إلى القصر، فسألته أن يمنحنى وقتاً، لكي أشكّر العائلة التي استضافتى، ثم الحق به. كنت أحسب أن بدور ستعضب لأننى أخفيت عنها حقيقى. أدهشنى أن أجدها سعيدة بالمفاجأة، لا تكاد تصدق أن الرجل الذى يمشى بجوارها وأقام كل هذه المدة في صحبتها، هو الرجل المبارك الذى قطع صحراء الأهواز وكافأته البلاد بتتصيبة أميراً. نقلت الخبر لوالديها بكثير من الإثارة والحماس، لاهثة تضع يدها على صدرها وكأن قلبها لا يقوى على احتمال هذه المفاجأة، فائلة لهما بأن الرجل الذى جاءهم غريباً

فاستضافوه، ليس إلا سالك الْدُّرُبِ، وسَيِّدُ الْقُصُرِ، خرج متتكراً للاختلاط الحر بالناس. شكرني الرجل وزوجته على ما منحه لهما من شرف، واعتذراً عن تقصيرهما في معاملتى معاملة تليق بصاحب الكرامات. وفدت بدور تلومنى لأنى لم أكشفها بحقيقة، فأضعت عليها فرصة أن تتنج علاقتنا طفلاً يأتىها عن طريقى ويرث شيئاً من أسرارى. كانت تقول هذا الكلام في حضور والديها. أدركت أن هناك أشياء كثيرة في هذه المدينة لم اتعلمها بعد. شكرت لهم جميل استضافتهم ووعدت بالعودة لزيارتهم ورجعت إلى القصر أعانق نرجس القلوب معذراً وأجلس صامتاً انتابها. لقد ظنت أن مكروهاً لحقى، وأرسلت المناوبيين على الحراسة للبحث عنى، ولكن دون جدوى. ثم جاء الإسکافى الحكيم يستخدم لهجة أكثر غضباً في العتاب، قائلاً أن غيابى كل هذه المدة كاد أن يهدد أمن البلاد. لم أكن أفهم كيف لأمير لا يعمل شيئاً غير جنى محاصيل الفول واللوباء، أن يكون لغيابه أو حضوره كل هذه الخطورة. أفهمنى أن وفداً من بلاد أخرى ظلوا لمدة أسبوعين ينتظرون لقائى، حتى ذهب في ظنهم أن امتاعى عن استقبالهم يحمل دلالة سياسية،

ويبني بموقف عدائى من أوطانهم. اقتضاه الأمر جهداً كبيراً لكي يمنعهم من السفر غاضبين، باحثاً عن شئ الأعذار لإقاهم إلى حين عودتى. لم يشاً أن يفزع أهل المدينة فيدعون إلى انعقاد مجلس شيخ الأحياء، الذى لا ينعقد إلا في أوقات الأزمات والشدائد، أو يبعث بالمنادين يدقون الطبول ويسألون الناس عن الأمير الغائب. لم أكن أحسب أن غيابي سيقفهم إلى هذا الحد، وإذا كان ما ارتكبته إنما فليقبلوا الآن طلب أعفائي من مسؤولية الإمارة لكي يتولاها واحد من أبناء المدينة، القادرين على فهم ظروفها، والحفاظ على تراثها وتاريخها أكثر منى. لتنولاها نرجس القلوب، أو ليتولاها هذا الشيخ الذى عاش عمره يحرس النظام ويحب على استقراره. أو فليخرجوها مرة أخرى إلى الصحراء باحثاً عن تائه جديد. أما أنا فلست سوى رجل جاء من خارج الزمان وتنطى على عصر ليس عصره وأرض ليست أرضه ولم يتحرر بعد من عاهاته التى جاء بها من ذلك العصر وتلك الأرض فصار ظلماً كبيراً بحق هذه المدينة أن يبقى أميراً عليها. حاولت بلهجة لينة أن أنقل هذه الرغبة إلى الأميرة والشيخ. كنا نجتمع في الديوان وقد تعمدت أن أجلس في مقعد

بجوارهما رافضاً الجلوس على مقعد الأمير. رأيتهم يقانون وينظران نحوى باستكفار وكأننى اخترقت أكثر التواميس تقديساً وإجلالاً. استمعت إلى الشيخ يسألنى بلهجة حاسمة ألا أعود لقول هذا الكلام الذى يغضب الله. إن إرادة إلهية هي التى أنجتى من المهالك واختارتى دون غيرى لأداء هذه المهمة عندما أرسلتني إلى باب المدينة بعد موت أميرها لأكون أميراً عليها، والاعتذار عن هذه المهمة أو التنازل عنها إنما هو حنث بالقسم الذى أديته ورفض للمسيرة المقدسة. في جمل حاسمة، قاطعة، أفهمنى أن تفكيراً كهذا يجب ألا يمرق بخاطرى، وأبلغنى أن الرجل الدمشقى الذى جاء موFDAً من أمير السلاجقة ينتظر الآن بالباب، وأنه يجب أن أرتدى حلة الإمارة وجواهرة الحكم استعداداً لاستقباله. كان النهار قد انقضى، وكانت القاعة تتيرها أصوات القناديل. ليس الموقف مناسباً لاستقبال الضيوف والتبسط معهم في الحديث. مضى الشيخ يقول إنه إجراء استثنائى نتدارك به مزيداً من التأخير، فقد لا يصبر هؤلاء السفراء نهاراً آخر. استجيب لما أراد.

أرتدى أقنعة الأمير وأدخل في شخصيته وأجلس فوق سدته العالية. يأتى الرجل الدمشقى محملاً بهداياه من السيف والسرورج الفضية والأقمشة الدمشقية، وأسمعه يلقى رساله الأمير السلاجوقى الذى يحكم دمشق، فتراودنى فكرة عابثة بأن أخبر هذا الدمشقى بما طرأ من أحداث تاريخية على بلاد الشام بعد حكم السلاجقة، واحتياج المغول للمنطقة، وحملات الصليبيين عليها، وما يحاصر ذلك الوطن من أعداء جدد، وما حدث في فلسطين من احتلال، وفي جبال لبنان من حروب الطوائف بعد تسعمائة عام من انتهاء حكم السلاجقة، الذين انتهت دولتهم، وذهبت ريحهم إلى الأبد. لا شك أنه سيعتبرنى أميراً مارقاً، مجنوناً، ي يريد إهانته والسخرية من دولته، وسيعود إلى دمشق يقرع الطبول وينفخ نفير الحرب. ليهناً الرجل الدمشقى بجهله ولامع نفسي من التفكير في أمر يخرج عن دائرة مهماتى، كأمير ينتمى إلى هذه المرحلة من التاريخ. استسلمت لمنطق عجلة الزمان، التى أعادتني إلى هذا العصر السلاجوقى، مشيداً بدمشق وعراقة تاريخها، ومكانة الأمة التى تتنمى إليها بين الأمم، والانتصارات التى حققها السلاجقة على ملوك بيزنطة وأمرائها، معذراً عن

تأخرى في استقباله كل هذه المدة بسبب الاستشفاء في المياه الكبريتية بعيداً عن هذا القصر. مجزياً له العطاء من ثمار المرجان هدية لأميره ومدينته. بقيت في صحبته زمناً، استمع منه إلى أخبار تلك البلاد، وما تعم به من ازدهار واستقرار، في عهد ملك شاه الذي يرعى العلوم والفنون. استقبلت بعده مندوباً من بلاد السند، جاء محملاً بأعواد البخور والتوايل والعطور والتحف والتماثيل العاجية، واستمعت إلى تقارير المناوبين على الحراسة، وحضرت مراسم التسليم والتسلم بينهم. أنجزت ما تريده الإمارة من أعمال، وعدت إلى أمرأى أصالحها مصالحة العشاق، بعد أن صالحتها مصالحة الأمير للأميرة، وأعادتها، وأنا أحتجى جسمها وأغتسل بشذا عطرها بآلاً أسبب لها كدراً أو ضيقاً. انهمكت مرة ثانية في روتين القصر. حياة بلا أعباء، وقصر لا يشبه قصور الحكم الأخرى التي قرأت عنها في قصص التاريخ، والتي تمتلئ بالجواري والخدم ورجال ونساء البلاط، حيث تحاك المكائد والدسائس وتتشاءم الصراعات على الحكم والتنفيذ. قصر يسكنه أيضاً عمال الحدائق والبساتين، الذين يشرفون في المناسبات على حفلاته، ويتابون معنا على صيانته ونظافته والعمل

في مطبخه الذى يتولى إعداد الطعام لكل ساكنيه. أصحوا مبكراً لأداء التمارين الروحية، وأنتهى من ساعات العمل في البستان، فذهب إلى الديوان، ويأتي المساء فأخرج متزهاً مع الأميرة التى أكملت زينتها، وارتدى أبهى حلتها، واستعدت لاستقبال الحفلة التى تلقاها من أهل مدinetها. لم أكن قد فررت أن أخبرها بالعلاقة التى أنسأتها مع بدور، لأننى لا أعرف ما يعنيه ذلك لها، أو ماذا سيكون رد فعلها، تعاملت بذات المنطق الذى تعلمه قبل وصولى إلى هذه المدينة. قلت لها كل شيء عن العائلة التى استضافتى، وما قمت به من نزهات معها، وما التقيت به من عائلات تجاورها، مبدياً إعجابى ب تلك الروح التى جعلت أنساً لا يعرفوننى يفتحون لي بيتهم وكأننى ابن غائب عاد إليهم. قلت لها كل ذلك دون أن أذكر شيئاً عن ابنتهما. أخبرتى نرجس القلوب أن ما فعلته معى هذه العائلة هو ما كانت ستفعله أية عائلة أخرى، لأن هذه هي تقاليد المدينة. إن بيوت الناس جميعها مفتوحة لاستقبال الضيوف، وباستطاعة أى إنسان تأخر به الوقت أثناء العمل بالحقول، أو مقالع الحجارة، أو عند ذهابه إلى الغابة، أو فاجأته الأمطار أثناء النهار، وأراد سقفاً وطعاماً،

أن يطرق باب أقرب بيت ليجد أهله يرحبون به. لم أقل لها أن ما حصلت عليه من تلك الضيافة كان أكثر من مجرد النوم والطعام والصدافه. وجدت حباً لا أدرى أن كان باستطاعتي أن أنساه، لأن المرأة التي التقى بها لم تكن امرأة عاديه نلتقي بمنتها كل يوم، أنها المرأة الاستثناء التي جاعت مطابقة لامرأة ترقد صورتها في قاع الذاكرة. لم أقل ذلك لنرجس القلوب ولن أقوله، ذهبت متوجلاً معها أضم إلى قلبي كل ما أراه من مظاهر الحياة في المدينة ومشاهدها. صرت الآن أكثر خبرة بها، وعرفت خلال الأيام التي قضيتها أتجول متحرراً من كل التزام عبر بيوبتها وأزقتها، كيف يصبح الحب وجوداً مادياً مثل غلالة رقيقة تغطى الناس والبيوت، حضوراً شفافاً زاهياً المسه وأحسه وأستشقه مع الهواء كالعتبر. تحرر القلب من وطأة الحاجة واختفي البعض والطعم، وبقى الحب الذي يجمع كل الناس ويغلف كل الناس. وما علاقة الحب التي تنشأ بين الرجل والنساء إلا جزء من هذه العلاقة التي تربط بين الإنسان والإنسان، بمثلك ما تربط بينه وبين الطبيعة، وبصدق وبساطة وعفوية تأتي العلاقة الجنسية باعتبارها استجابة لهذا القانون، أنها ليست مجرد

تحرير للطاقة الغريزية الفاعلة في وعي ولا وعي الإنسان، ورفع الأغطية عن أبخرتها ذات القدرة التدميرية لو ظلت محبوبة، مكبوبة، وإنما مصدر من مصادر السعادة التي يحرص الناس على اغترافها لا بحواسهم الخمس فقط وإنما بحاسة سادسة مصنوعة من الشفافية والتربية الروحية وثراء العالم الداخلية، فيصير الجنس شوفاً وعشقاً ومعانقة لمعنى الحياة وسر الوجود. فلماذا أبدوا الآن مليئاً بالآلام، متراجعاً من هذه العلاقة الحميمة المباركة التي ربطتني لأيام قليلة بصبية مصنوعة من رغوة الحلم. سوف لن أخبر نرجس القلوب بما حدث، ولا أظن أن أحداً من أهل المدينة سيفعل ما فعلت أو يراه بريئاً كما أراه. إنني أحكم إلى مقاييس تختلف عن مقاييسهم، ونشأت في بيئه تختلف عن بيئتهم، وجئت إليهم أحمل سلوكيات تتباين مع سلوكياتهم، واحتزن في دمي كبتاً قدِيماً وجوعاً لم يعرفه رجال مدينتهم ، ما أدهشنى أن بدور لم تشعر بالحرج عندما عرفت من أكون، ولم تعتبر نومها مع رجل متزوج إثماً. فهل كانت تستند إلى تقليد يبيح هذه العلاقة؟. أم أنها كانت تفعل ذلك لأنها لم تكن تملك ارتباطاً كارتباطي. وإذا كان ما فعلته إثماً فهو أثمى أنا وليس أثمنها.

ولكن ما هو ذلك العنصر الغريب لديها الذى يفتنى ويعوينى ولا أستطيع أن أنساه حتى وأنا في أحضان امرأة لها جمال نرجس القلوب وثراء عوالمها. جئت إلى هذه المدينة طائراً غريباً خرج يغدر خارج سربه، فبسطت لى هذه الأميرة كفأ يحمل ماء وطعاماً وحناناً، منحتى منذ الليلة الأولى مفاتيح قلبها، وارتضتى زوجاً استجابة لتقاليد مدينتها، وأشعت سناء أضاء دروب رحاتى الغربية. ولكنها قبل كل شيء الأميرة التى تضع قلبها حيث مصلحة بلادها. تلقت تربية ملكية تتجلى في كل جزء من شخصيتها وسلوكها وحيثتها. إنها لا تستطيع أن تتخلى لحظة واحدة عن هذه الشخصية حتى وهى تحب وتتزوج. وتظل هذه الشخصية الأميرية حاضرة متألقة حتى وهى تختلط بالناس في الأسواق والميادين والاحتفالات التى تقام في الهواء الطلق. تفعل ذلك كله وهى واعية بكونها الأميرة التى ينظر إليها الناس بإعجاب وإكبار، حريصة على زينتها، وجمال مظاهرها، مدركة أن الناس وهم يتلقون بها سوف يخبرون أهلهم وأصحابهم بهذا اللقاء، ويصفون لهم ماذا قالت، وكيف ابتسمت، ويتحدثون عن الثوب الذى ترتديه، والعطور الذى تستعملها، والطريقة التى صفت بها

شعرها، وقد تسعى بعض الفتيات إلى تقليدها ومجاراتها في اللباس وتمشيط الشعر. ولذلك فهي دائماً حريصة على الصورة التي يراها بها الناس. مؤمنة بأنها ترسى بسلوكها مثلاً وقدوة، وتسهم في تنمية الذوق، وتعقيم الحس الجمالي لدى أهل مدينتها. وهي لا تفعل ذلك تصنعاً وافتعالاً، وإنما استجابة للجذور التربوية وسنوات التكوين الأولى التي أعدتها لهذا الدور وجعلت احساسها بالواجب يبلغ هذا الحد. ولا شك أن لذلك كله دخلاً في موافقتها على الزواج بي وإحاطتي بحبها ودفعه عواطفها، فهو سلوك نابع من داخلها وعمق قناعتها برسالة أميرة مثلها. حتى دخل غرف الجناح الذي يضمها بعيداً عن أعين الآخرين لا تستطيع إلا أن تكون مثلاً لهذا السلوك الأميري، تهتم بأناقتها، وتعتني بتنظيم زهورها وكأنها تقيم معرضًا للزهور، وتجعل لساعات الطعام والنوم والراحة والعمل مواعيدها وطقوسها. وأنا لا أضيق بذلك كله، ولا أجد فيه قيداً على حرية، فهي تفعل كل ما تفعله بيسر وعفوية، وتتباهى إلى ما ينبغي القيام به بأسلوب بالغ لرهافة والعذوبة. ومع ذلك كله أحس أحياناً بالحنين إلى حياة الانطلاق التي جربتها بعيداً عن القصر، فوجرتها أكثر

ملاءمة لطبيعتى التى لم تنشأ نشأة ملكية، وإنما تربت تربية حرة داخل الأحياء الفقيرة، فصادفت الحياة التى عشتها مع بدور هوى في نفسي. نحتسى فارورة نبىذ في الخلاء دون أن نستخدم الكؤوس، ونشوى سمكاً أو ذرة في موائد النار دون أن نقىم اعتباراً لمواعيد الطعام. نسلق الجبال حتى تتمزق أرديتنا ونعرف ماء الينابيع بأيدينا ونرتوى منه، ونترى كى نسبح في المياه الجبلية دون احساس بالحرج. وفي حين كانت بدور تعبيراً عن روح المدينة في انطلاقها وتحررها وحبها للحياة وعشقاها للجبال والبحيرات والفراشات والأزهار الوحشية التي تبته بين الصخور، فإن نرجس القلوب بعراقتها ونبيل مظهرها ومسلکها وتقديسها للتقاليد التي تحفظ للمدينة نظامها، تبدو وكأنها جوهرة أتقن الصاغة صناعتها وترصيدها بفصوص الأحجار الكريمة. إننى أحب ما ألقاه من بذخ وتوهج وثراء في شخصيتها، ويجب أن تكون شاكرةً لهذه القوى التي أوصلتني إليها، ولكن شخصاً آخر بداخلى، لم يستوعب تقاليد القصور ولم يتداً صغيراً بأفمطه الأمراء ما زال يملأه التوق إلى تسلق الروابى بصحبة امرأة رأى فيها تجسيداً لفورة الطبيعة في أكثر دوراتها خصوبية وعفافاً.

وزاد من إذكاء هذا التوف إدراكى أن الإمارة قدر لا فكاك منه ولا هروب، كرهت ذلك أم أحبت، شئت أم أبيت. لعلنى لو لم اكتشف هذه الحقيقة لكتت أكثر استمتاعاً بها ورغبة فيها ولكننى الآن صرت أحس بعبء مسئوليتها، وأجد نفسي أحياً مثليساً باستمراء أفكار وخواطر سرعان ما أطردها من رأسي، وهى أن أقوم بعمل ينفرهم منى، أن أكون سبباً في تأزم علاقتهم مع دولة أخرى، أن أمارس شيئاً يتنافى مع تقاليد مدينتهم، ويسىء إلى نظامها، حتى أجعلهم مرغمين على القبول بإعفافى من هذه المهمة. وكنت أطرد هذه الأفكار خشية أن يتحول هذا اللعب إلى كارثة تدمر المدينة، وأشعر بالذعر من ذلك الكائن الذى تلوث بهواء القرن العشرين، واقتات أربعين عاماً على موائد، وأخشى أن ينتصر في نفسي، ويفلح في تقويض هذا البناء المصنوع من مادة مخملية باللغة الرهافة والحساسية.

لم أكن قد تجاوزت في جولاتى مركز المدينة وأحوازها وضياعها القريبة، ولم أكن طوال هذه المدة قد خرجت إلى الغابة التى ترتمى خلف الجبل، حتى جاعت نرجس القلوب تقترب أن نعيد إحياء تقاليد رحلة الصيد التى

يقوم بها الأمير مرة كل أسبوعين إلى الغابة، فقد تعطل هذا التقليد منذ رحيل الأمير السابق، ولأنني أجهل هذه الرياضة، فقد اقتضى الأمر أن أتلقى تدريباً ومراناً ودروساً في الرماية وركوب الخيل على أيدي الرجال المشغولين بالصيد. وجاء بعد أيام موعد أول رحلة صيد أقوم بها. كان افتتاح الموسم مناسبة للاحتفال والمواكب الرسمية، احتشد في باحة القصر عدد من راكبي الجياد وحاملي السهام والرماح والحراب الذين جاءوا بكلاب الصيد وصقره. جلست فوق الجواد انتظر بداية المسير، وارتدى لباس الصيد المصنوع من جلد الحيوانات، وأملأ كنانتي بالسهام، وأحمل على كتفي فوس الرماية، وبجواري نرجس القلوب تمتظى جواداً تداعب عنقه، وترتبت على كتفيه، وتبتسم لى مشجعة وهي تراني أتهيب هذه المغامرة. وجاء فريق من ضاربي الطبول، يتقدون موكبنا، ونحن نباشر رحلتنا، ونجاز شوارع المدينة، ثم نمرق عبر الحقول، حتى نصل إلى بيت عند سفح الجبل، قريباً من الشلالات، يستعملونه استراحة ومخزناً ل حاجيات الصيد. تزود الموكب بالمؤن وأوانى الطبخ وقرب الماء، وانضم إلى ركبنا عدد آخر من أهل المدينة ممن

جاءوا للمشاركة في الرحلة. توقف ضاربو الطبلول عن مصاحبتنا، وانطلقت الجياد تجتاز بنا شعباً وممرات جبلية كثيرة الوعورة، ترتفع وتحخفض، تصعد بنا حيناً وتهبط حيناً، حتى توغلنا في الجزء المنبسط من الغابة الذي اختاروه مكاناً للصيد هذه المرة. لم تكن الغابة سوى حديقة حيوانات طبيعية بما فيها من غزلان ووعول وأرانب وثعالب، وما تملئ به أشجارها من طيور وأعشاش، وما يتسلق جذوعها وأغصانها من قرود، وما يسكن بحيراتها الصغيرة من أفراس البحر، وما يقفز من حفاف أرضها من سحالي وسناجب وجرذان. لم يكن يهمنى كثيراً أن أبدى براعة في الرماية، ولكن الصيادين الذين يرافقوننى، ويسرفن على تدريبى، كانوا يبدون حماساً كبيراً لتشجيعي، وكانت أرى الواحد منهم يرافقنى وأنا أرمى سهماً باتجاه أرنب هارب. يذهب السهم طائشاً ولكن الأرنب يسقط مصاباً. أعرف أن سهماً غير سهمي أصابه، برغم ما بدا للآخرين من أننى أنا الذى أصبه. ولأنها أول رحلة صيد يأخذوننى إليها، فقد اختاروا البقاء في هذا الطرف من الغابة، ولم يتوجلوا عميقاً في أدغالها البعيدة. إن وحشاً أكثر شراسة وافتراساً، مثل النمور والأسود والفهود والضباع

والذئاب التي نسمع أحياناً زئيرها وعواهها، تسكن تلك المناطق الكثيفة التي تحول فيها الأشجار إلى جدار لا يقدر على اخترافه إلا أهل الحرفة. اعتبرناه يوم نزهة واستمتاع بالطبيعة. أشعنا ناراً، وقمنا بطهي وشواء العديد من الفرائس التي اصطدناها. لم أكف بمنعة الصيد، وإنما وجدت متعة أخرى في الإلصاقات إلى هذا النشيد الصاخب الذي تعزفه الطيور، واكتشاف أنواع منها لها ريش ملون وتيجان مخصبة ومناقير حمراء، والعثور على نباتات ذات براعم تضيء كالفوسفور، وزهور تختلط في أوراق الواحدة منها كل الألوان الطيف، وأنواع متواحشة من الفطريات ذات أحجام بالغة الضخامة، وكانت أشجار البلوط قد ابتدت لنفسها قصراً في الغابة، حيث تشابكت أعراضها بمثيل ما تشابكت عروقها النافرة فوق الأرض تصنع ردهات وأروقة. عدنا في المساء من رحلتنا ونزلنا عند الاستراحة نتقاسم أقداح النبيذ، شكرت الصيادين على ما بذلوه من جهد في تلقيني أسرار مهنتهم، وعدت مع الأميرة إلى القصر، وقد أصبح الذهاب إلى الصيد موعداً انتظر بلهفة مجئه، وأرى أنه أدخل نكهة جديدة على حياتي، وأضاف إليها شيئاً من الإثارة والمغامرة والانطلاق،

أكسر به رتابة الروتين اليومى. لم تعد رحلة الصيد تقتضى المراكب والاحتفالات والطبول، كما هو الحال في المرة الأولى. إنه يوم للراحة والنزهة والرياضة. يأتى موعده فأذهب مع الأميرة إلى الاستراحة، حيث نحتفظ هناك بعدة الصيد وسلاحه ولباسه، ونلتقي بعدد من الصيادين الذين يصطحبون الكلاب والصقور وطيور الباز المدربة على مطاردة الفرائس. نمضى معهم سعداء بما يتاحه الرحيل في الغابة من اتصال بالطبيعة في أكثر أطوارها بدائية، وأكثر مناطقها بكاره، وقد جاء الصيف ينضج ثمار أشجارها، ويضيف ألواناً أخرى إلى ألوانها، وتحرر بعض الطيور من ريشها القديم، فيتاثر فوق أرض الغابة وكأنه بديل لزهور الربيع التي انقضى أو انها. وأرى نرجس القلوب لا تتخلى عن سمت الأميرة ومظهرها، فأسألها أحياناً أن تتسى أنها الأميرة لكي تستطيع أن تتطلق على سجيتها. كنت في الحقيقة أعبر بذلك عن أمنية سرية، وهى أن أرى بدور قد حل في شخصية الأميرة، وأضافت إليها شيئاً من روحها المنطلقة الهائمة بالتقاليد. سيعقينى ذلك من عناء هذه العواطف

المتصارعة في صدرى نحو المرأتين. ولكن الأميرة تضحك

فائلة:

- هكذا خلقت ونشأت، ولم يعد بإمكانى أن استبدل أبي وأمى.

قلت في خاطرى، ولكن أمى لم تكن إلا امرأة جاهلة فقيرة تحترف البكاء، وأبى قضى عمره ماشياً فوق حقول الألغام، فبأى حق أسائل هذه الأميرة أن تكون مثلى.

- معذرة لأننى لم أصنع من القماشة التى صنع منها النساء.

تظننى الأميرة أشكو ماضياً لا تعرفه، فتعينى إلى بهاء اللحظة التى أعيشها، وأنا أجلس معها في غرفة نوم تغطيها أجنحة الملائكة، وتقول بلهجة عتاب حانية وحنونة:

- ألسنت سعيداً؟

نعم، هذا هو جوهر القضية. كيف أجرؤ على القول بأننى لست سعيداً وأنا الذى طرحت خلفي عالماً مسقفاً بالأجنحة السوداء ونفذت إلى مدينة تشبه غمامه من العطر. إننى أكثر سكان هذه المدينة قدره على رؤية النور الذى أشراق فوق جياه مبانيها، لأننى عرفت ما ينافقها، ورأيت

مدن الرماد والقصدير التي جئت هارباً منها، ولذلك فإنني لا
أستطيع إلا أن أكون سعيداً، وما الصحبة التي تقدمها لى
أميرة مضيئة، وشهية مثلها إلا بهجة دائمة ورحيق يرشف
منه القلب ولا يرتوى، حتى السويغات التي أقضيها عاماً
زراعياً يغرس المشاتل ويجنى المحاصيل، تحولت إلى نزهة
أتشوق إليها، لأنني تعلمت كيف أن الأزهار في بوادي
الصباح، تكون أكثر قدرة على نفح اريجها، الذي يصنع خيمة
من العطر تطللني. وإذا ما مارست عواطفني ترفاً في التخير
بين هذه الأميرة الناعمة كأوراق نرجسة مغمومة في الندى،
وبين صبية أخرى لها انطلاق الوعول وحبها للركض في
حدائق الفجر، فما ذلك إلا لأنني أحمل نهماً للاغتراف من
ينابيع النور والفتنه التي أضنانى الرحيل إليها، وأجد في
الارتواء منها، تعويضاً لكل سنوات الإ محل والمسغبة. قلت
لها بأن الحياة معهم ليست إلا نزهة عبر حقول الفرح. وإذا
كانت كتب الحكمة تقول بأنه لا سعيد في مدينة الأشقياء،
فإنني لا أتصور أن يكون الإنسان حزيناً وسط بشر سعداء.
إنني سعيد وأريدها أن تكون هي أيضاً سعيدة، متألقة على
الدوام، مثل نجمة تضيء السماء.

- إذن ما رأيك في أن أمنحك سبباً آخر للسعادة؟.
- كما أن البحر لا يكره المزيد من الماء، فالقلب لا يكره المزيد من السعادة.
- ستصير قريباً أباً.
- هل حقاً ما تقولين؟
- نعم فأنا حبلى منذ أسبوع مضى، ولم أشاً أن أخبرك قبل أن أرى الطبيب حسان، وأنتأكد من ذلك.
- وهل تقضي التقاليد بإرسال المنادين لإخبار الناس؟
- ليس قبل خروج المولود إلى الحياة.
- مولود في قصر الأمير. سعيدة هي بالجنين الذي يتكون في بطنها، ومن واجبى أن أكون سعيداً مثلاً. بقيت ساهماً لا أضيف شيئاً. استمعت إليها بمثل ما أستمع إلى أية امرأة أخرى تتحدث عن طفل سوف تتجبه، وتلقيت الخبر بمشاعر حيادية، ليس فيها فرح أو حزن. إننى أحتاج إلى بعض الوقت لكي أستوعب هذا الخبر، وأبحث في ذاكرتى عما يعنيه أن يكون لى طفل في مدينة عقد المر جان. إننى أعيش هنا بإحساس من يعيش حياة مؤقتة، حياة رجل طارى على هذه المدينة. ها أنا أصبح فيها أباً لطفل يسبق ميلاده

ميلادى، ويسبق تاريخه تاريخى، مفارقة تضاف إلى مفارقات هذه الرحلة. طفل يؤسسى ويصنع لى جذوراً و يجعل انتمائى الطارئ انتماء ثابتاً وأصيلاً. طفل يولد في قصر أميرى. لن يقول ما قلته أنا عن أصلى وقماشنى التى لم تصنع من قماشة النساء. ويمثل ما جاعنى في سنوات العمر الماضية طفل وهبته لوطن ليس وطني، فها أنتا أجد نفسى مرة أخرى أباً لطفل أهبه لهذا العصر، وهذه المدينة التى سقطت في جيب من جيوب الزمن فما عادت تعباً بتقادم العصور، في حين لم أفلح في انجاب طفل في وطني وبين من يعتبرهم الناس أهلى حتى اعتقدوا بعقمى فلم يعد أحد ينتظر ذرية تحمل اسمى، وتصنع لى امتداداً في الزمن الآتى. هل أستطيع أن أفرح الآن بمجىء هذا الطفل؟ وهل تراني سأقى مقىماً في هذه المدينة حتى أراه يظهر للوجود، وأستمتع بمرافقته وهو ينمو ويدرج فوق الأرض، واستمع إلى أولى الكلمات التي يقولها، وأزهو به يناديني بأبيه. هل ستبقى هذه المدينة حلماً لا يتبحر في الهواء، ولا يلحقها ما يلحق الأحلام من التلاشى والذوبان؟ علمتى بعض أيام العمر أن الأشياء الجميلة لا تدوم، فهل حقاً ستدوم أيام هذه النعمة. نظرت إلى نرجس

القلوب فرأيت وجهها يطفح بالسعادة، غارقة في أحلام امرأة تكتشف الآن أمومتها، مرحلة أخرى لا بد أنها أكثر إثارة من تلك المرحلة الأولى التي تكتشف فيها المرأة أنوثتها. تذكرت أن المواليد في بيوت النساء ليسوا كمواليد البيوت الأخرى. إن ألف ليلة وليلة عاصرة بالحكايات التي تتحدث عن عذاب الملوك والأمراء الذين يحرمون من الإنجاب فينسون مباحث الحكم ويصرفون وقتهم في البحث عن علاج للعقم والجري وراء السحرة والمنجمين وإرسال المبعوثين إلى أقصى الأرض طلباً لمعجزة تمنحهم الخصوبة والولد.وها قد تحقق لى هذا المطلب دونما عناء، وجاءنى الطفل الذى يحفظ في المدينة ذكرى ويكون أميراً من بعدي بحسب ما تقتضيه تقاليد الحكم التي تتيح هذا الحق لابن الرجل القادم من الصحراء باعتبار أنه سيرث شيئاً من أسرار وكرامات أبيه، فإذا انتهى عهده، سقط هذا الحق عن أبنائه، وخرج أهل المدينة إلى الصحراء بانتظار رجل من أهل الله، يجدد تواصلهم مع عالم الأسرار وفوة الروح. فكيف لا أكون سعيداً سعادة أولئك الملوك بأبنائهم. إنها إمارة لم أطلبها، وحكماً لم أؤسسه بالحروب والفتحات التي يؤمن بها الملوك حكماً يورثونه

لأبنائهم، ولكن سعادتى بالطفل لا يجب أن تكون لمجرد أنه ولد في قصر الأمير، إنه ابنى، ومن حقى وواجبى أن أسعد به كما يسعد الآباء بأبنائهم بمعزل عن أى اعتبار آخر. رأتى الأميرة غرفاً في التفكير فسألتني عما يشغلنى.

- أفكر بالاسم الذى نسمى به طفلنا، سأقترح له اسماً إن كان ولداً، وتقترحين أنت الاسم إن كان بنتاً.

- وهل وجدت اسماً مناسباً؟

- سأسميه باسمى الذى صاع تحت الألقاب الأميرية، خليل. وماذا عن أسماء البنات؟

- سأختار لها اسماً من أسماء الزهور.

- نعم. اسماً يشبه اسمك، ويكون لائقاً بها كما كان النرجس لائقاً بك.

عدت مرة أخرى إلى التفكير وعادت هى إلى السؤال.

- انتهينا من الاسم فما الذى يشغل بالك؟

- تشغله هذه المفارقات التى تجعل من رجل عاش فقيراً مثل والدى ينجب سلالة من الأمراء يولدون قبل عصره.

لم يعد الحديث عن العصر الذي جئت منه يفزعها، بعد أن أقنعها جلال الدين بتقسيراته. وضاحكة من هذا الحديث المتكرر عن أصل المتواضع، أخبرتني بأنها أيضاً تنتمی في أصولها إلى أسرة بسيطة أكثر فقرأً من أسرتى. وهى وإن ولدت في هذا القصر لأب ورث الإمارة، إلا أن جدها لم يكن إلا رجلاً صوفياً من فقراء الناس يجوب الآفاق بأسمائه البالية، يتلو تسابيحه، ويهمم مع تأملاته، يبشر برسالة المحبة والتجلی الالهي وحلول الخالق في المخلوق ووحدة الجوهر المؤسس لكل العقائد الدينية. خرج هارباً، مطارداً من أمير بلاده، الذي أرسل وراءه الجلاوزة والسيافين بغية قتله، ولجا إلى صحراء الأخدود السود وطيور الافتراض وثعابين النار. جاعوا يطاردونه في الصحراء، فكان مصيرهم الهلاك، ومصيره النجاة، وبقى عاماً كاملاً تائهاً في تلك البداء، يتغذى بحشائش الأرض، حتى وصل منهكاً، مريضاً، إلى أبواب هذه المدينة، بعد أشهر من وفاة أميرها. كان رافضاً للإمارة، ولكنه عندما وجد أنها التزام لا مناص منه ولا يتعارض مع ما يريده لنفسه من نسك وزهد وتصوف، مضى في الإصلاح وهداية الناس. كان أهل المدينة مازالوا في ذلك

الوقت يبعدون القمر باعتباره رمزاً للنور والخلاص وتجلياً
لجمال إله الكون ومبدعه، فصرف جهده من أجل هدايتهم إلى
الله واقناعهم بالاتجاه إليه فهو رب القمر والشمس والنجوم
وما حوى الكون من ظلمة وضياء وأرض وسماء. وهو
الواحد الأحد الذي ليس كمثله شيء، وليس بجسم ولا صورة
ولا جوهر ولا عرض. فهو الأول والآخر والظاهر والباطن،
لا يبصر نوره إلا من نظر في نفسه وكان قادراً على
استخلاص الحكمة من وجوده والاهداء إلى الشعلة الإلهية
في ذاته. كانوا يقيمون الصلاة للقمر وينشئون الأديرة
لعبادته، فتحولت تلك الأديرة إلى مدارس ومصحات للعلاج.
كان رجلاً صاحب كشف وإشرافات وتجليات، يؤمن بوحدة
الوجود وروح الله المبثوثة في كل مظاهر الحياة وعناصر
الطبيعة، ويرى أن العبادة ليست إلا حب الذات الإلهية
ومعرفة الحقيقة العليا، وكان مسلماً يؤمن بوحدة الأديان،
فعلمهم أن الأديان مختلفة في ظاهرها متفقة في جوهرها،
تصدر عن تصور واحد وتنتجه إلى إله واحد. وحبيب إليهم
القيام بتلك الرياضة الروحية التي يؤدونها مع تلاوة سورة
الفاتحة كل صباح. آمن به الناس وأحبوه واعتبروه نبياً لكنه

أعرف أن كلاماً مثل هذا سوف يفزعها، وقد تخرج هاربة موقفة بجنونى. ثم من قال أن القمر الأسود الذى زارته مراكب الفضاء، يجب أن يكون نفياً وإلغاء للقمر الذى نراه من فوق الأرض مضيئاً وجميلاً، عامراً بالأطيااف والرؤى. سوف لن أضيف شيئاً يثيرى حياتهم بمثل هذا الحديث، وإذا كان الرجل الصوفى الذى جاء تائهاً مثلى قد استطاع أن يهدىهم إلى نور الله، فلأترك أنا هذا الهدىان عن العصر الذى جئت منه طالما أتنى لا أستطيع أن أضيف بهاء إلى هذا البهاء.

فألا ترى فات للأميرة متسائلاً:

- ماذا لو حمل الطريق الصحراوى مجرماً أو مجنوناً،
فهل كنت ستقلدون به أميراً؟

- لا أحد يستطيع أن يجتاز تلك الصحراء إلا رجل
وصل مرحلة الشفافية نقاءً وصفاءً، وسرى فوق الأرض مثل
الصوت والضوء والهواء.

ولكننى وعاء مثقل بالخطايا، ومملوء بكثافة زمن
عمره ألف عام، فكيف تحررت من طبيعتى الترابية ونفذت
مثل الضوء إلى مدينتهم. إنهم يتقون بحكمة الأقدار، فلماذا لا

أثق أنا أيضاً بحكمتها، التي طفت بي فوق الأحاديد وأودية الجن.

صار على نرجس القلوب منذ هذا التاريخ أن تتبع نظاماً يختلف عن نظام حياتها قبل الحمل. تحررت شيئاً فشيئاً من واجب العمل بحدائق الورد، أو مرافقتى أثناء الزيارات وحضور الاحتفالات والمراسم. وجاءت امرأة تعمل بالتمريض ترافقها طوال الوقت وتعتني بإعداد الطعام الذى يناسبها، كما جاء الحكيم حسان يعالج بأعشابه ما يلم بها من أمراض الوحم، ويتبع نمو الجنين تحسباً لأية أعراض طارئة.

توقفت أيضاً رحلات الصيد تجنباً لمستنقعات الغابة وأرضها الرخوة الموحلة، بعد أن بدأ الخريف يرسل أولى أمطاره التى تصنع عدراً تملأ الطرق الجبلية المؤدية إليها، وبذلك حرمت من هذه الرياضة التى كانت تمنح أيامى لوناً جديداً مغايراً. صرت أذهب بمفردى إلى حضور الاحتفالات وملقاء الناس فى أعيادهم المسائية، وأبحث عن الإسکافي جلال الدين فى دكانه لكي يرافقنى فلتجده غائباً، وأعرف

حينئذ أَنَّه صار يصرف أَغلب وقته مع الحرفين، سعياً وراء آلة يستعيرها من منجزات القرن العشرين.

فَلَتْ لَه أَثنَاء زيارته إِلَى الْقُصْرِ، وَنَحْن نَجْلِسْ بِإِحدِي الشِّرْفَاتِ الْمُطَلَّةِ عَلَى رَكْنِ تَأْوِي إِلَيْهِ الطَّوَّاِيْسِ:

- لِمَاذَا تَخْلِيْتُمْ عَنْ شِعَارِ لَه كُلُّ هَذَا الْجَمَالِ وَالْبَهَاءِ؟

- لِأَنَّ مَظَاهِرَ الْأَشْيَاءِ لَا تَكُونْ بَدِيلًا عَنِ الْجَوَهْرِ فَإِلَيْ ذَلِكَ الْجَوَهْرِ يَجِبُ أَنْ تَتَجَهَّ الْعُقُولُ وَالْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ.

- إِذْنَ فَقْدَ كَانَ ذَلِكَ جَزِئًا مِنَ التَّحْوِلِ عَنِ الْعِبَادَاتِ وَالشِّعَائِرِ الْقَدِيمَةِ.

- كَانَ جَزِئًا مِنَ التَّحْوِلِ عَنِ الْانْشُغَالِ بِالْخَارِجِ إِلَى الْانْشُغَالِ بِالْدَّاخِلِ. مِنَ الْبَحْثِ عَنِ النُّورِ وَالْحَقِيقَةِ وَالْبَهَاءِ خَارِجُ الْإِنْسَانِ، إِلَى الْبَحْثِ عَنِ هَذِهِ الْقِيمِ وَالْمَعْانِي دَاخِلِ الْإِنْسَانِ.

- أَلِيْسَ الشِّعَارُ رَابِطَةٌ يَتَوَحَّدُ حَوْلَهَا النَّاسُ؟

- وَمَا حَاجَةُ هُؤُلَاءِ النَّاسِ إِلَى شِعَارٍ طَالَمَا اهْتَدُوا إِلَى وَشَائِجٍ أَكْثَرَ عَمْقًا، تَكْمِنُ فِي نُفُوسِهِمْ، وَتَرْبِطُ بَيْنَهُمْ.

رَأَيْتُ أَنَّهُ وَقْتٌ مَنْاسِبٌ لِأَنْ أَسْأَلَهُ عَنْ هَذِهِ الْمَهْنَةِ الَّتِي أَخْتَارَهَا، فَقَدْ بَدَا غَرِيبًا أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ الَّذِي كَرَسَ حَيَاتَهُ

لاغناء العقول وتقديم المشورة للأمراء وتربيه أبنائهم،
صاحب مهنة تهتم بأقدام الناس ونعالهم.

- إِنَّكَ تَعْمَلُ بِالْتَّوْجِيهِ وَالْتَّرْبِيَّةِ وَشُؤُونِ السِّيَاسَةِ، فَلِمَذَا
صَنَعَ الْأَحْذِيَّةَ؟

- إِلَيْهَا حِرْفَةُ لَمْ أَخْتُرْهَا وَإِنِّي تَعْلَمْتُهَا عَنْ وَالَّدِي، الَّذِي
تَعْلَمَهَا عَنْ وَالَّدِهِ، فَصَرَّتْ أَشْغَلُ بَهَا وَقْتِيْ، وَأَنْتَجَ بَهَا شَيْئاً
يُنْفَعُ النَّاسَ، وَأَسَدَّ بَهَا دِينِي لَهُمْ، فَالْلَّهُدِّيَّةُ لَا يُحِبُّهَا اللَّهُ.
نَعَمْ، قُلْتُ لِنَفْسِيْ، أَنَّ الْإِنْسَانَ يَحْتَاجُ إِلَى هَذَا يَضْعُ
قَدْمَهُ فِيهِ قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ، فَالْأُولَوِيَّةُ لِلْحَذَاءِ.

- إِنَّكَ لَمْ تَرِ المَشْغُلُ الَّذِي يَعْمَلُ بِهِ الْحَرْفَيُونَ.
لَا بَدْ أَنْ صَنَعَ الْأَحْذِيَّةَ أَتَعْبُهُ وَأَضْنَاهُ فَأَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ
لِلنَّاسِ وَسِيلَةً أُخْرَى يَسْتَخْدِمُونَهَا فِي السَّيِّرِ غَيْرِ نَعالِهِمْ. إِنَّهَا
لَيْسَ الْمَرَةُ الْأُولَى الَّتِي يَدْعُونِي فِيهَا إِلَى زِيَارَةِ الْمَشْغُلِ
وَلَكِنِّي لَمْ أَشَأْ أَنْ أُسْمِحَ لَهُ بِتَورِيَطِي فِي قَضِيَّةِ أُعْرَفُ مُسْبِقاً
أَنَّهَا لَنْ تَثْمِرْ شَيْئاً ذَا جَدْوِيْ.

- إِنَّهُمْ يَعْمَلُونَ بِهِمْ عَالِيَّةً. تَفْشِلُ تَجْرِيَّبَهُ فَيَبْدِعُونَ
بِغَيْرِهَا دُونَ أَنْ يَنْالَ ذَلِكَ مِنْ عَزِيمَتِهِمْ.

لم أقل له أن نتائج عملهم بدأت تظهر واضحة لكل أهل المدينة، فثمة قناطر تحتاج إلى ترميم لم يعد هناك من يرميها، وأبنية انتهى البناءون من إشادتها لم تجد من يصنع لها الشبابيك والأبواب وشبكات الماء، فظللت ناقصة لا يستطيع أحد أن يسكنها بعد أن تفرغ هؤلاء المهنيون لمشروعه الوهمي.

- تعلم أتنى منذ البداية لم أكن متقائلاً.

- لن نخسر شيئاً بالمحاولة.

- ولن نستفيض شيئاً.

رأيته صامتاً ينظر إلى طاووس نفس ذيله وذهب يخاصم طاووساً آخر، فأدركت أنه لم يسترح لكلماتي. صار المشروع حلماً لاصقاً بقلبه لصوق الأهداب بالعين ولن يتخلى عنه حتى لو تقوضت كل أبنية المدينة دون أن تجد من يصلحها. بهره العالم الذي أخبرته عنه فصار مهوساً بما يمكن أن يتحققه العقل البشري من إنجاز، وسعى لأن يقدم شيئاً جديداً يضيفه إلى مكتسبات هذه المدينة التي يعمل حارساً لنظامها وحاملاً لتراث العلماء الذين حفروا نهضتها وازدهارها. أعلم جيداً أن ما يلهب حماسه أن هو إلا توق

الإنسان إلى المعرفة وطموحه إلى تحقيق المعجزة ورغبته في تقليد الآلة. إذ من أين لهذا الشيخ الذي لم ير ما رأيت أن يعرف تلك القوة الخفية التي تتلتف إنجازات العلماء فتحولها باتجاه ينافق الحلم الذي كان وراء إنجازها. إنه أنا الذي رأى وعرف وعاش ذلك العصر الذي يبدأ بالعلم وينتهي إليه، وآمن بالعلم أكثر مما آمن به هذا الشيخ، من يأتي الان لتخذيره من هذا كله. صرت أعرف الآن أن هناك كوة في الكون يأتي منها هواء فاسد يلوث الأحلام ويسخر من جهود العلماء. وأعرف أن رجل العلم الذي أسمهم في إنجاز المكتشفات التقنية التي صنعت السيارة والطائرة والعقل الآلي، أو ذلك الذي فلق الذرة واخترق قوانين الجاذبية وتقوى بسرعة الآلة على سرعة الصوت، لم يكن يفكر أن لا يختراعه نتائج أخرى غير تلك النتائج التي حلم بها واعتقد أنها تفتح آفاقاً أمام تطور الإنسان وتدرجاته الحضارية وتحقيق سعادته فوق الأرض، لا أن تكون باباً مفتوحاً على الجحيم. إنني متطير من هذا الحماس الذي يديه الشيخ، وأضع يدي فوق قلبي خوفاً على هذه المدينة من نتائج تفكيره، ولا يريحينى سوى شيء واحد وهو يقيني بأنه لن يحقق ما يسعى إليه لأن

للحورة الصناعية ميقاتاً تأخر عن هذا الرجل أكثر من سبعمائة عام. تركته يذهب إلى عماله ومضيت متوجلاً في الحقول استمتع بمراقبة ما يحده الخريف من تحولات فوق أوراق الشجر وأعواد القصب والخيزارن. جلست على ضفاف البحيرة، فرأيت ياقوت الشاعر ينبعق فجأة أمامي وكأنه خرج من ماء البحيرة، سأله مداعباً إن كان قد جاء إلى هذا المكان ماشياً فوق الماء فلم أنتبه إليه. قال وكأنه أخذ كلامي على محمل الجد:

- تلك مرتبة لم أصل إليها بعد.
- وهل تطمح بالوصول إليها؟
- قريباً بإذن الله، فأنا موعد بذلك.
- ومن تراه الذي وعدك بتحقيق هذه المعجزة؟
- شيخي وأستاذى ودليلى الذى لم أستطع معه صبراً.
- لعله اهتدى إلى سيدنا الخضر الذى لا يهتدى إليه إلا من ولد وقد رسم على قلبه خاتم الأسرار والنبوءات.
- ولماذا لم تستطع معه صبراً؟
- رأيته ينتزع العسل من فم الثعبان ويدعونى لأن أشاركه هذا الطعام فترددت. تركى غاضباً ومضى.

- وهل وعدك قبل أن يمضي بأنك سوف تمشي فوق الماء ؟

- وعدني بأن يمنعني كل أسراره عندما يكتمل استعدادي لذلك وها أنا أحاول.

- كيف ؟

- بإيقان العزف على الناي واستلهام النغمات الذائبة في الفضاء الكوني، فبهذا وحده أستطيع أن أقيس ما وصلت إليه من صفاء وما حققه في مدارج الإبداع والالهام. هذه كانت إرشاداتك عندما علمتني العزف على الناي.

- أعترف بأن لعزفك سحراً على القلوب.

- هذا وحده لا يكفي.

- وهل هناك ما هو أبعد من ذلك ؟

- أريد أن أكون مثله. إنه يعزف للأشجار فتحمل جذورها وتسير وراءه.

- هل رأيته بنفسك يفعل ذلك ؟

- رأيته يفعل أكثر من ذلك. رأيته يعزف للصخور فتتبدت أزهاراً ترقص وتغنى.

- ما أعظم شوقي لأن أرى مثل هذا الرجل.

- إنه لا يظهر لكل الناس، ولن تراه إلا إذا أرادك هو
أن تراه.

بدأت أصدق أن من يتحدث عنه هو سيدنا الخضر،
وأنه اختار هذه المدينة مكاناً لإقامته. فهتفت بالشاعر أن
يخبرني ماذا يمكن أن أفعل لأنكون جديراً برؤيته.

- أشياء بسيطة في متناول كل إنسان أن يفعلها. هل
فكرت أن تحمى فراشة غشيمه بيهراً اللهب، من الاحتراق
بنار موقدك؟

كنت أريد أن أعرف منه المزيد عن هذا النبي الذي
عاش طافياً فوق مياه الزمان، ولكن ياقوت الشاعر قال جملته
الأخيرة واختفي خلف أشجار الصفصاف. وجدت نفسي
وحيداً في ذات المكان الذي تعودت أن أنظر فيه بدور وقد
رفف طيفها يملأ الذاكرة. تشوقت دائماً إليها، وعذبني
الحنين لرؤيه عينيها، وكنت أمنع نفسي من التفكير بها
وأهرب بمشاعرى إلى

الأميرة احتمى بها من هذا الضعف الذى جئت أحمله
معى من عالم لم يولد بعد، فلقد كانت دائماً بجوارى تملأ
ببهجة حضورها كل الفراغات إلى أن جاء الحمل يمنعها من

مرافقى في هذه الجولات. تذكرت بأنى أعطيت وعداً
لوالدى بدور بأن أزورهما. أفرحنى هذا الوعد الذى كدت
أنساه، فهو ذريعة مقنعة تتبع لى أن أطفئ شوق البصر إلى
رؤيتها. لا بد أن أراها، وسوف تكفينى دقيقة واحدة، لا أريد
أكثر منها، لأنعود إلى بيته سعيداً راضياً. إنها تتعشق أن
تتجب طفلاً يرث أسرارى وكراماتى، ولكننى سأعمل
بنصيحة ياقوت الشاعر وسأحمى هذه الفراشة الغشيمية،
البريئة، التى ييهرها اللهب الكاذب لمعجزة لا وجود لها، من
الاحتراق في نار موقدى. وسرعاً ولجت الدرج الذى يقود
إلى منزلها، أكاد أركض ركضاً لكي لا ينتصر هذا الخاطر
الذى يحذرنى من خطورة العودة إليها. لم تكن بدور قد
عادت إلى البيت عندما دخلت إليه محفوفاً بحفاوة والديها.
أحسست بشيء من الارتياح لأنى لم أجدها. أن لها جمالاً لا
أمان له، وقد يفتك بي هذه المرة أيضاً. جلست قليلاً ثم
نظرت في ساعتى تمهيداً لأن أطلب الان. لم تكن هناك
ساعة في معصم يدى ولكنها عادة لم أستطع أن أتخلص منها
حتى ظن عمال بساتين القصر أننى أملك خاتماً موشوماً
بصبغة سرية على ظهر يدى أنظر إليه دائماً وأستعين به

على فضاء حوائجى. وما أن وقفت مودعاً حتى رأيتها مقبلة.
في الحق أتنى رأيتها قبل أن أراها، وتوتر جسمى كله
استعداداً لمجيئها قبل أن تأتى، كأن هناك تياراً يسبقها ويصنع
هذه الارتجافة التى هزت بدنى، أقبلت بدور تعانقنى وهى
تطلق ضحكتها ذات الرنين، التى تكشف بهاء الغمازتين
المغمومستين في دساممة الوجه. أتنسم عبرها وأرى السحر
الهاجع تحت جفونها فأعرف أنها هي اللهب وما أنا إلا أجنحة
فراشة تحترق. أسمعها تسألنى إن كنت قد أخذت إجازة كما
فعلت في المرة الأولى لأعيش أياماً معها. أقول متجللاً
الهروب، بأننى ما جئت إلا للتحية، فلا تتركنى حتى تتفق
معى على موعد في اليوم التالى، فائلة بأنها أتفقد العزف
على العود، كما أتفقد معرفة المقامات الصوتية، وسوف
ترينى ما وصلت إليه من مهارة في العزف والغناء.

اخترت استراحة الصيد مكاناً للقائنا، فهو بيت بعيد عن
المدينة، يحمى بعزلته وأشجاره، وقد أصبح الآن خالياً إلا
من نوى عجوز يتولى رعايتها، ويتخذ منه مسكناً بعد أن
توقف موسم الصيد.

جاء الموعد وذهبت إلى هناك.

بدأ النهار ممطرًا فانتظرت حتى توقف المطر واتخذت طريقى إلى ذلك البيت الذى يهجم تحت أقدام الجبل. فى السماء شمس حنونه وفي الجو برودة منعشة. مشيت فوق العشب أستقبل الشذا الذى يصنعه الظل وهو يغطى الأرض والشجر، واقتربت أفتش عن مدخل البيت الذى كان ديراً قديماً لعبادة القمر قبل أن يتحول إلى استراحة صيد. تشابكت حوله السراخس والزنابق والدوالى وأشجار البلاب وصنعت له غلافاً أخضر يغطى جدرانه كلها. وجدت النوى الشيخ منهمكاً في إصلاح أحد الأشرعة وإكسائه بالقماش. سأله عن الخدمة التي يمكن أن يقمنها، فقلت له بأننى جئت لكي أتأمل الطبيعة من شرفة البيت. أخذت من مخزن التموين قارورة نبيذ وصعدت إلى شرفة بالطابق العلوى. أخرجت مقعدين مصنوعين من سعف النخيل، وجلست أتأمل الأعراس التي نقام في سقف الكون. انعكست أشعة الشمس على السماء التي رشحت دمعاً كثيراً، فصنعت قوس فرح كثير الإشراق والبهاء. امتص العناصر الملتئبة في ضوء الشمس، واحتوى كل الألوان وبرز الأخضر والأزرق والبنفسجي، ومن حوله

السحب المرشوشة بمسحوق الفضة وغبار الذهب تصنع بهوا
في السماء يليق بجلال الآلهة.
كان المقعد بجوارى فارغاً.

وكان المشهد ناقصاً، حتى جاءت بدور تملأ هذا الفراغ
وتصبح محوراً لهذا الجمال والنقاء عناصره حولها. جاءت
تحمل حقيبة وضعتها بجوارها وجلست تقاسمنى الشراب.
رأتى مأخوذاً بمهرجان الألوان الذى يضج به الأفق،
فأخبرتى كيف أن الناس يتقاعلون بظهور هذا القوس
المضيء، ويخرجون لرؤيته، ويتأملون ألوانه التى تقييد
البصر وتمنحه قوة وجلاء. وبصمت وهدوء، كأنها تؤدى
شعيرة دينية، فتحت الحقيقة، وأخرجت عوداً مرصعاً
بالأصداف، وضعته بحنان فوق حجرها، وداعبت أوتاره
بريشة من جناح طائر أزرق، وبدأت ترسل عزفها وغناءها.
علقت بصرى بمشاهد الطبيعة وأرھفت سمعى للعناء
الذى ينثال عذباً شجياً كأنه يأتي منداحاً مع الضوء، وممزوجاً
بألوان الطيف. أحسست بنفسي ثملأ، منتشياً بنشوة لا تصنعها
إلا أقداح مترعة بخمر الآلهة. نظرت إلى جبينها وعينيها
وحاجبيها وأنفها وفمهما وغمازتيها، وانثال غدائر الشعر

الفاحم السود على كتفيها، أملاً بصرى من بهائها وهى تغنى باستغرق وانفعال كأنها في رحلة وجد صوفى. أيقنت أننى عاشق لهذه الأنثى التى تلثم وجهها أصواته ذهبية تتسبك من نوافذ السماء. وضعت العود جانباً فصفقت لها، وقبلت جبينها لاهجاً بالشاء على روح الإبداع التى تجلت في كل مقطع من عزفها وغنائها. جاء النوتى الشيخ مسحوراً بما تناهى إليه من غناء، يحمل في يده طبقاً من السمك المشوى، الذى يفوح برائحة الحق والكمون، وينظر ساهماً إلى بدور. كان واضحاً أنه ما جاء بهذا الصحن إلا ليكون ذريعة يقتحم بها خلوتنا، ويشاهد هذه المرأة التى تملك صوتاً يضيق كالعibir. فتحت الرائحة شهيتى للطعام فأخذت منه الطبق شاكراً. سألتني بدور ونحن نتناول السمك أن أخبرها عن حياتى في القصر و مجالس الحكم وما نفعله في رحلة الصيد، أفهمتها أن أهم ما أقوم به هو العمل بستانياً ومزارعاً في حدائق القصر، وسمعتها تذكر اسم نرجس القلوب فقاطعتها قبل أن تكمل السؤال، أطلب منها وقد انتهى الطعام، أن تزيدنى من هذا الغناء الذى لا ترتوى منه الأذن. رأيتها هذه المرة تعزف لحناً مألفاً تذكرت بسرعة أنه لحن أغنية شعبية كنت أغنيها

في مراحل العمر الأولى مع أطفال المدينة القديمة. بل أن
كلماتها التي تخاطب القمر العالى هي ذات الكلمات:

- يا قمر عالى عالى.

سافرى وتعالى وتعالى

تعجبت من نفسي كيف نقلت إلى بدور هذا اللحن وهذه
الكلمات دون أن أدرى، فقد كنت أثناء جولاتنا في الجبال
أذندن أمامها ببعض الألحان من محفوظاتي القديمة، دون أن
أذكر أنى أسمعتها هذا اللحن. نقلت لها حيرتى، فأجابتنى
بأنها لم تسمع هذا اللحن منى. إنه من الحانهم القديمة
المتوارثة التي يغنىها الناس ويتجهون بها إلى القمر منذ أن
كان كوكباً يعبدونه ويسمونه سيدة السماء. لم تستطع بدور أن
تفهم سر الدهول الذى أصابنى، ولم تستطع أن أقول لها بأن
هذا اللحن الذى تغنىه الآن يمثل اكتشافاً مذهلاً بالنسبة لرجل
قطع مسافة ألف عام عائداً إليهم، وأنى أعثر الآن، وفي هذا
الحن، على وشحة تربط بين هذه المدينة وبين المدينة التي
عرفت مولدى ونشأتى. أما كيف عاش هذا اللحن كل هذه
المدة، وكيف ذهب إلى هناك مسافراً عبر المسافات
والعصور، حاملاً معه آثار ديانة قديمة، انقرضت الديانة ولم

ينفرض اللحن، فلا أرى فيه إلا تعبيراً عن قوة الفن الذي يقهر الموت والزمن. ولا أرى في هذا اللحن إلا دليلاً على صلة قديمة غامضة تربط بين هذه المدينة ومدينتي الأولى.

قلت وأنا ما زلت متربع القلب بما سمعت:

- لا شك أنه سيكون لك شأن كبير في الغناء عندما يسمعك الناس.

- ما أكثر الدعوات التي جاعتنى للغناء في الاحتفالات واعتذرت عن قبولها.

- أرجوك لا تعذرى وإلا استعملت سلطة سالك
الدرب في إرغامك على الغناء.

- ولماذا تريد أن تفعل ذلك، هل لأنك واثق من
موهبتى ؟

- لأنى لا أعرف مكرمة أخرى أقدمها لأهل المدينة
خيراً من هذه المكرمة.

توارت الشمس خلف الأشجار والحقول، واتفقنا قبل أن نفترق على موعد اللقاء. عدت إلى القصر وذهنى ما زال مشغولاً بالأغنية الشعبية التي عبرت مثلى هذه المسافة، وسكت حناجر الناس في المدينتين، تملأنى بوهج الذكريات

الذائبة في الزمن الذي مضى وهو لم يأت بعد. صار موعد لقائي مع بدور موعداً ثابتاً من كل أسبوع. أذهب كالسائل في نومه، تسوقنى إليها رياح داخل الصدر لا أستطيع لها دفعاً. أجلس بحوارها، مسحوراً بغنائهما، مكتفياً باعتراف الفرح البريء من عينيهما، دون أن أنسد متعة أكثر من هذه المتعة، ومرة إقبة مشاهد الطبيعة التي تصنع إطاراً يليق بصورتها.

لمدة أسبوع خمسة كان اللقاء ينتهي بانتهاء النهار. وفي الأسبوع السادس تأخر لقاونا قليلاً، لأن بدراً شديد السطوع أشرق بغتة في الجانب المقابل من الأفق. تطلعت إليه بدور فائلة:

- سيكون إساءة لبهاء هذا القمر أن نتركه ونذهب إلى النوم.

قلت في خاطرى لعل هذا الإله الذى أحالوه على
التقاعد سيعاقبنا لو فعلنا ذلك، فهو ما زال غافلاً عما حدث
له، يائى متالقاً، محفوفاً بموابكه الباذخة وكأنه فعلاً إله
الكون.

- بدأ الناس يخرجون الآن من ديارهم ويحتقلون بظهوره.

كنت أتساعل بيني وبين نفسي عما سيقوله الناس وهم يروننى أتنزه في عيد القمر مع امرأة ليست زوجي. ولكن دور التى فرأت أفكارى أسعفتى بالحل عندما قالت:

- ألا تراه ليلاً مناسباً لنزهة فوق مياه البحيرة؟

- نعم. إنه كذلك فعلاً.

ذهبت ترکض إلى النوتى تسأله أن يعيرنا قارباً للقيام بنزهة صغيرة. أخذنا نبيذاً وتقاهاً وتبيناً مجففاً، وقادنا النوتى إلى القارب. كان الليل يشبه نهاراً مغسولاً بماء الذهب، ووجه البحيرة بدا هادئاً، ساطعاً، تناثرت فوقه قوارب تتداح فوق الماء كالمراجيح، ومن بعيد تناهت إلينا أصوات المزامير وأهازيج الناس الذين خرجوا لتحية القمر. لم يستطع النوتى أن يقاوم غواية المشهد، فجاء يشاركتنا هذه النزهة، ويتولى بنفسه قيادة القارب، ومضى يحرك مجاديفه التي تثير فقاعيغ تتوهج لحظة تحت مسقط الضوء وتدوب في العتمة الممزوجة بالماء، في حين أرسلت بدور حنجرتها بغناء تناجي به البدر الذى وقف على حافة السماء، باسطاً رضاه ورحمته على المياه والأشجار والبشر. غنت له وللليل

والأساطير، وأعلنت انتقامها لشيء واحد في الدنيا هو العشق.

- لا بد أن يكون لى طفل يحمل أسرار سالك الدرس.
وسط الغناء همست بكلماتها في أذني. ارتشفت جرعة
من قارورة النبيذ، وأخذت تقاحة قضمت منها جزءاً وأعادتها
إلى فمها، ثم واصلت الغناء وكأن ما قالته شيء لا يستحق
مناقشة أو رفضاً أو قبولاً، فهذا هو قرارها الواجب التفاذ.
كنت في كل مرة التقى بها أقاوم فورة الدم في عروقى،
وأمنع نفسي من السقوط محترفاً في موقد نار الشهوة. ولكن
للقمر الإله تأثيراً على الحواس لا سبيل إلى الهروب منه،
ومواسم الإخصاب والحب التي ترافق ظهوره عند اكتمال
استدارته ليست إلا دليلاً على هذا التأثير. وجدت نفسي
أضمها وسط القارب إلى صدرى. ألم الوجه الذى بلله
الرذاذ، وأشرب من رحيق الورد مثل نحلة عطشى. تأخر بنا
الليل قبل أن نعود إلى الشاطئ، ودونما تفكير في العوائق
قررت أن أمضى ما تبقى من هذا الليل في فراشها. ذهبت
معها إلى بيتهما، ودخلت كفراشة تدخل حدائق النار إلى غرفة

نومها، وفي صمت خلعت هى إزارها، وارتمت عارية فوق
شرائف الحرير.

لم أجد صعوبة عندما عدت في الصباح إلى القصر،
في أن أخترع سبباً مقنعاً لمبىتى خارج البيت. لقد ذهبت
أحضر مع الناس أعياد القمر، وعندما انتهت الاحتفال، كان
الوقت متاخراً، وكنت ثملاً لا أقوى على المشى، فطرقت
باب أول بيت يصادفني وقضيت الليل هناك.

كنت عاتباً على نفسي، أعاني لحظة يشبك فيها الفرح
بالأسى. لم تتبع آثار ليلة الغبطة واكتمال القمر، ولكن
إحساساً بالاثم جاء يلونها وأنا ألتقي بنرجس القلوب. إننى لا
أحفظ لهذه الأميرة عهداً، ولا أعبأ بنواميس المدينة التى تكره
الكذب، ولا تتيح أن يرتبط الرجل بأكثر من امرأة واحدة،
وترتبط المرأة بأكثر من رجل واحد، في وقت واحد.

حاولت فيما تلى ذلك من أيام أن أمنع نفسي من مقابلة
بدور، وأن أضع حداً لعلاقتى بها، ولكن ما أن يأتى موعدها
حتى أجد نفسي مدفوعاً بقوة كأنها السحر للقاتها. أفكر أحياناً
أن أعترف لنرجس القلوب بما حدث. أن أجلس معها جلسة
صدق ومكاشفة، وأخبرها صراحة بعشقى للمرأة الأخرى،

واكتشف أثاء لحظة المواجهة أنتى لا أقوى على ذلك،
فأهرب للاحتماء بشخصية الرجل القادر من خارج العصر،
مؤجلاً اتخاذ أى قرار.

ما أن بدأت دور تغنى في الاحتفالات العامة حتى ذاع
صيتها بين الناس باعتبارها نسيجاً وحدها بين أهل الغاء.
وجاء موعد احتفال تقيمه المدينة بإحدى قاعات القصر إحياء
لذكرى مرور ألف عام على إعادة بنائها بعد أن أهلكها
إعصار يسمونه الإعصار الأصفر، فعرفت أنها ستكون
ضمن المشاركين في الحفل. ألقى خبر مجئها إلى القصر،
وحملت عباء المخاوف التي أثارها في نفسي هذا الخبر، إلى
أن جاء يوم الحفل. وصلت دور في موعد مبكر. استقبلتها
نرجس القلوب بابتسامة ترحيب وحفاوة، ونقلت إليها ما
سمعته من إعجاب الناس بصوتها وعزفها، وقدمتني إليها
صفحتها مصافحة رجل يقابلها لأول مرة. كنت أضع
بصري في الأرض خجلاً وأنا أرى الأميرة تحتفي بضيوفها،
وقد طفح وجهها براءة، غير مدركة أن هذه المرأة ليست إلا
شريكى في خيانتها. أنه أول لقاء بينهما، وبينى وبينهما في
صورة تتسع لنا نحن الثلاثة. تذكرت كل الكلمات التي لا أحد

هنا يعرفها. الغش والخداع والخيانة. ها قد جئتكم بحملة كبيرة منها. لبيعها في أسواق مدينتهم التي تجهل هذه البضائع الجديدة، الغربية، المستوردة من عالم آخر وعصر آخر. امتلأت حنقاً من نفسي، وقطعت عهداً صامتاً بأن أكافف بدور عند أول لقاء برغبتي في الانفصال عنها، لا كرهاً لها، وإنما تضحية وإيثاراً واحتراماً لنواميس وبهاء مدينتها. سمعتها تعبر عن رغبتها في أن تتجول قليلاً في أنحاء القصر الذي تزوره لأول مرة. فعرفت أن مجئها المبكر لم يكن إلا بهدف أن تراني كيف أعيش وراء حيطة هذا القصر. قادتها نرجس القلوب عبر الأروقة والردّهات، وسرت خلفهما، محظظاً بمسافة بيني وبينهما، أرقب بدور وهي تشنعل فضولاً وأسئلة ودهشة، وتطلب في ختام الجولة طلباً لم أر زائرأً من قبل يطلبها، وهو أن ترى الغرفة المغلقة على أسرارها التي تقول بأنها سمعت شتى الأحاديث والحكايات عنها. كنت قد نسيت أمر هذه الغرفة كما نسيت الآن موقعها، لأن أحداً في القصر لا يأتى على ذكرها. كان السؤال مفاجأة لنرجس القلوب التي وقفت لحظة لا تقول شيئاً. ثم في صمت ونبيل استدارت ومشت تقودها عبر ممر طويل مهجور إلى

باب الغرفة. وقفت بدور أمام الباب المغلق بالأقفال وأسياخ الحديد، تنظر باندهاش إلى النقوش والتقوينات المرسومة فوقه. تحاول أن تفك رموزها، وتقرأ الكلمات التي تداخلت حروفها، وتسأل بفضول إن كان أحد يعرف ما يوجد خلف هذا الباب. أخبرتها نرجس القلوب بأنها غرفة منسية، لا يهتم أحد بأمرها ولا يعرف ما خلفها. انتهت هذه المهمة الثقيلة ووقفت مع الأميرة على باب القاعة تستقبل الضيوف. مدت أسمطة الطعام والشراب، وفرغ الناس من العشاء فبدأت حصة الطرف والغناء. استهلها الشاعر ياقوت بتلاوة أشعاره المنغومة. ارتدى عباءة خضراء وأحاط عنقه بشال من الحرير ف بدا جميلاً، بوجهه الفتى وشعره الطويل، كجمال الصبايا. القى أشعاراً تحيية لهذه الذكرى، وتمجيداً للمدينة التي أزهرت بعد النبول والموت وابعاثت من رمادها بعد كارثة الإعصار الأصفر الذى تدفق من شقوق الجبال، فأهلك البشر والشجر والطير. ثم عزف على نايه شجى الألحان. وجاءت بدور تختال في ثوب بنفسجى يجر فوق الأرض لم أنتبه لجماله إلا وهو يسطع تحت فناديل هذه القاعة وقد زينت شعرها بالورود. أخذت عودها الذى تضيئه الأصداف

وجلست فوق الأريكة تداعب الأوتار وترسل جميل الغناء.
تعالت أصوات الإعجاب والثناء وتتدفق الصوت نهرًا يسيل
رحيقًا يترع النفوس ويملئها ببهجة سماوية. نسيت ما كان
يحالجني من اضطراب وحرج، وتحولت إلى كائن أثيرى،
يعانق ذرات الضوء ويفقد من عشب الغناء، ولا يقيم
اعتباراً للمسائل الدينية. إلى أن رأيتها تجالس الشاعر
ياقوت، وترقص معه، وتبادله حديثاً هاماً. استيقظت في
قلبي مشاعر الكائنات الطينية، وأطلت الغيرة نبتة سوداء،
فسحقتها قبل أن تجرحني بأشواكها. إنها لا تليق برجل غيره،
وهو لا يليق إلا بها. جمعت بينهما الوسامنة ومهنة الفن
و سنوات العمر الخضراء. ويجب أن أكون سعيداً إذا نشأت
علاقة حب بينهما تحررنى من عنف هذه الغواية وقوه جنبها
وتأثيرها. هذا عشق يجب أن أحاربه في نفسي، وأطرده من
عقلى وقلبي، من دمى وجوارحى وساعات نومى وصحوى،
إذا أردت أن أكون جديراً بالحياة بين هؤلاء الناس، والانتماء
إلى هذه المدينة.

وجاء اليوم المحدد للقاء معها. صحوت مبكراً للقيام
بتمارين الصبح الروحية. استلقاء فوق الأرض. اندماج مع

روح المكان. عزلة مع النفس. ابتعاد عن العالم الخارجي. طرد لكل الهواجس والأفكار. استغراق في التأمل واستكشاف الأصوات التي لا تصدر إلا من أعماق الذات.

انتهيت من قراءة الفاتحة " اهدا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ". وبدأت التمرين بأن أرهفت السمع إلى كل ما يدور حولي من أصوات. سمعت غناء الطيور في الحديقة، خرير الماء في الجداول، حفييف أوراق الشجر، صرير الجنادب. صار سمعي أكثر حدة ورهافة، استطعت أن أسمع ما لا يمكن سمعه في الحالات العادية، حفييف أجنحة الطيور ودبب أقدامها فوق الأغصان، هفييف أوراق العشب وأزizer حشرات دقيقة لا تراها العين. ثم أغلقت أذني عن الاستماع إلى الأصوات القرية لأنني أصواتاً بعيدة تأتي من خارج سور المدينة، فكرت في الحقول والبحيرة وشلالات الماء والهضاب التي تتطرح خلفها الغابة، تهياً لي أنني أسمع هدير الماء في الشلالات، ضرب المجاذيف في البحيرة، أصوات طيور وحيوانات تستيقظ في الغابة، صرير أبواب تفتح وتغلق في الضياع البعيدة، وقع خطى أناس يعبرون بوابة المدينة

ويجوبون طرقاتها. تركت بعد ذلك الأصوات تنهر في أذني. القادمة من القصر وحديقه ومن داخل المدينة وخارجها. اندمجت جميعها في نغمة واحدة مثل عزف فرقة موسيقية اخلطت أنغام آلاتها، فلم يعد ممكناً تمييز واحدة من أخرى. ثم أغلقت سمعي واتجهت إلى نفسي، تصورت أن هذه الأصوات لم تعد موجودة وحل بدلاً منها الصمت والسكون. انسحبت من الخارج إلى الداخل، ومن الظاهر إلى الباطن، لكي لا أنصت إلا إلى نفسي، إلى حركة الدم في عروقى، إلى الهواء الذي يدخل ثم يغادر رئتي، إلى النبض الذي يتتردد في صدرى، إلى عناصر الماء والهواء والضوء والتراب وهى تتفاعل في جسدى. انتقلت مما هو معلوم من الأصوات إلى ما هو غير معلوم ولا معروف. استمعت إلى أنين المزامير التى تعرفها أنسام تهب داخل شعاب الروح، وهيل حمام وغناء طيور فوق أشجارها، إلى صنجات تدقها خلايا البدن وشعيراته الدموية، إلى رنين زهور تتعانق على صفاف الجداول التى يسرى عبرها الدم. بقيت هاجعاً، صامتاً، مستمتعاً بهذه السكينة الداخلية حتى أحسست بأننى مهياً لأداء التمارين التى توقف المدارك الغافية خلف الشعور،

أصدر أمراً واعياً إلى يدي بأن تبقى مسدلة بجواري، ولكنها ترتفع في حركة تتناقض مع الأمر الذي أصدرته الإرادة الوعية، استجابة لإرادة أخرى تهجع خلف هذه الإرادة، ثم أصدر لها أمراً بأن ترتفع حتى تلامس رأسي، ولكنها تبقى ممددة فوق الأرض لا تتحرك، رافضة أن تستجيب لغير الإرادة الأخرى. أواصل التمرين عدة مرات، تدريجياً وإيقاظاً لذاك الإرادة الداخلية النابعة من عمق الذات. ثم أجد نفسي غاطساً في سحابة بيضاء، سديم يغلفني ويحميني من كل الهواجس والأفكار والأصوات. صار ذهني صفة بيضاء، وأنا ورقة تسبح في فضاء لانهائي، وتحدد بذرات الهواء التي تغلف الكون. انتهى من التمرين وأقوم من رقادى إنساناً سكنت اضطراباته واحتقت أوجاع روحه وتحرر من مشاعر القلق والخوف وانبعث في أعماقه نور يضيء المناطق المعتمة. وبهدى من هذا النور صرت أفك في الأسلوب الذى أعالج به علاقى مع بدور. وكان أول ما خطر على ذهنى هو أن أمتنع عن الذهاب إليها. سوف تدرك وهى ثائى فلا تلقاني أن العلاقة بيننا قد وصلت إلى نهايتها المرتفعة، وسوف يغنىنى هذا الغياب عن الوقوف أمامها مرتباً لا أجد

مقالاً يناسب المقام. ولكنه سلوك لا يستقيم مع نبل هذه التضحية وإهانة لا تليق ببهاء هذه المرأة. يجب أن أذهب وأضع الأمر كله أمامها، وأنترك اتخاذ القرار لها. كان الجو غائماً عندما جاء منتصف النهار، اختفت الشمس وامتلأت السماء بالسحب القاتمة، المنذرة بأمطار الشتاء. ركبت بمفردي قارباً صغيراً رأيته يعود فارغاً إلى البحيرة، يقوده نوتي يلتحف بعباءة ثقيلة. وما أن قطع القارب مسافة قليلة حتى بدأ المطر بالهطول. كان مطراً خفيفاً لم أعبأ بالبحث عن وقاية منه. وقفت ممسكاً بعمود وسط القارب أستقبل حباته وهي تسيل فوق وجهي، وأرقبها وهي ترقص فوق سطح البحيرة فأرى في رقصها تعبيراً عن فرحة التقاء الماء بالماء. لم يكن النوتي الذي أحكم العباءة فوق رأسه يخشى المطر، ولكنه رحمة بي أراد أن يركن القارب تحت سقف الجسر الذي وصلنا إليه. سأله أن يواصل رحلته، وأن أحس بنشوة غريبة يبعثها في نفسي هذا المطر الذي جاء يغسلني وبطهرني من إثم علاقة مبهجة، جميلة، آثمة، ساضع لها حداً هذا اليوم. وصلت إلى الضفة القرية من الدير القديم، فترك القارب وسرت عبر الدروب المعشوشبة، أقفز فوق الغدران،

وأرافق فرحة الشجر والأعشاب، وأستمع إلى الأصوات التي تحدثها زخات المطر وكأنها وقع حوافر خيل لا مرئية.

وأتقاطر ماءً وصلت إلى الاستراحة. لم تكن الشرفة مكاناً مناسباً للجلوس في مثل هذا الطقس، ولم تكن غرف البيت مهيئة لاستقبال الضيوف في مثل هذا الفصل، فدخلت إلى مخزن يمتلئ بالأشرعة المهمشة، والقوارب القديمة، ورائحة الخشب الذي تبلله الرطوبة. افترشت حشية قش، ورميت عباعتي التي كانت تتنفس بماء المطر، والتحفت بوزرة من الصوف وجدتها بين ملابس الصيد، وجلست أحضن موقد النار الذي ساعدني النوى في اعداده. تأخرت بدور عن المجيء، فأحضرت نبيذاً وأطباقاً من الفستق والبندق واللوز وجلست أحتسى كأسى، وألقم النار مزيداً من أحطاب الأشرعة، وأنصت إلى صوت المطر يقرع الأسفين والجدران بعنف وإلحاح. صرت أملك الآن ساعة داخلية كبديل عن ساعة معصمي، أقيس بها الوقت. تأخرت بدور أكثر من ساعتين وبدالي أنها لن تقوى على الخروج في مثل هذا اليوم المطير. فكرت في العودة إلى القصر ولكنني لم

أكن مستعداً لمشوار آخر تحت هذه الأمطار التي زرعت في
أطراقي ارتعاشة البرد.

و قبل أن تصل بدور سبقتها نفحة من روحها. عرفت
أنها فادمة فوقفت أمام باب الدار أنتظراها. كانت ترتدي
برنساً فوق قفطانها الحريرى. خلعت البرنس ذى القماش
الشمعى الذى ينزلق فوقه الماء، وجلست بجوارى فوق حشية
القش، قائلة بأنها انتظرت أن يتوقف المطر لكي تستطيع أن
تأتى بعودها معها، وعندما تأخر الوقت تركت العود وجاءت.

- إنه عود نادر لا يصنعون مثله إلا في بغداد، ولا
أريد لحبة مطر واحدة أن تلمسه. ولكن لا تحزن. إن في
حجرتى ما يكفي من الأوتار التي تعزف وتغنى دون حاجة
إلى آلات الموسيقى.

ليس غناء الحنجرة وحده الذى يبهجنى، ولكن كل هذا
النشيد الذى يترافق في خاطرى ندياً، صافياً، يعزفه
حضورها المجيد جسداً وروحأً وضوءاً وعطرأً. انتبهت إلى
أن هذا النشيد هو ما جئت اليوم أسمعه لآخر مرة، وأننى
سأفترق عن هذه الأنثى ولن ألتقي بها في غرفة مغلقة بعد
هذه الجلسة. أفرزعنى هذا الخاطر فالتصقت بها حتى لامس

نهاها زندى. أحسست بأنوثة الجسد البادخ المبلل بالماء تثير ذكورتى وتوقظ الرغبة ساخنة، حارقة، في عروقى. إنها اللحظات الأخيرة من عمر علاقة عشق هاربة. سأمنح نفسي كاملة لهذه اللحظات، وسأعلق داخل صدرى جرساً ينبهنى إلى ما تبقى من الوقت، لكي لا تداهمنى الدقيقة الأخيرة بعثته. دندنت بدور بأغنية قصيرة، مرحه، سريعة الإيقاع، وتجلت تلك البحة المبهجة اللذيدة في صوتها أكثر إثارة وإغراء من غنائها بصحبة العود. كان الصوت يأتي الآن عارياً من الكساء الذى تلبسه له الموسيقى، فيظهر بكل لذاته وتفاصيله الأنوثية المثيرة. ليكن حبها إثماً، أو ضعفاً، أو نزقاً، أو نزوة، أو مرضًا، أو جنوناً. ليكن تحطيمًا لكل التواميس والأعراف، وخروجاً على تقاليد المدن المرجانية واستهتاراً بها، فإننى لا أستطيع أن أتوقف عن حبها لحظة واحدة. حاولت وأنا أستمع مبهوراً إلى غنائها، مغموراً بشفافية الضوء الذى يصنعه وجودها، أن أزع نفسي منها، لاستحضر صورة الأميرة نرجس القلوب بوجهها القمرى الاستدارة وصفاء ابتسامتها ورقة شفتتها، امرأة بالغة البهاء

والعذوبة، ولكن قلبى برغم جمالها كلها، يبقى منذوراً لهذه الأثنى التى لا تشبه أحداً إلا نفسها.

- ما رأيك؟ أنها أغنية جديدة مازلت أتمرن عليها.

- هذه أغنية تختلف عن سابق أغانيك، فلعل شاعراً وعارضاً مثل ياقوت هو من أعطها لك.

- من أخبرك بذلك؟

إذن فالأغنية من ابتكاره. وهو اجسٍ لم تكن كلها أو هاماً. أدركت أن في اللحن والكلمات شيئاً جديداً لا تصنعه السليقة الشعبية وإنما قريحة مبدع له قدرة على التجديد والابتكار وتجاوز الأفكار والأسكار المسبوقة. ها هي علاقتها به قد توثقت حتى صار يؤلف ويلحن خصيصاً لها.

- رأيتكما تترافقان تلك الليلة فأيقنت بأن الفن في مدينتنا سيحقق ازدهاراً عظيماً.

- كان كل ما كنت أغنيه من المحفوظات القديمة، إلى أن جاء هو يمنحنى خبرته، ويساعدنى في بناء شخصية فنية جديدة متميزة.

الليس هذا ما كنت أريده. أن يثمر اللقاء بينهما علاقة تبعدها عنى وتحررنى من غوايتها، فلماذا أبدو مهموماً

أتصور وكأن ياقوت الشاعر جاء يسرق شجرة الفرج الوحيدة
في حديقة بيتي، يعزف لها مزاميره، فتتزرع جذورها من
أرضي وترحل وراءه. لا تفسير لهذا الوجع الذي أحس به،
إلا أنني أحبها حباً أقوى من الإرادة الوعائية، وأقوى من
مشاعر الامتنان والوفاء نحو تلك المرأة التي رأيتها تستعيير
ملامح شهرزاد الأسطورة فتعلقت بها واحتارتها زوجة منذ
أول ليلة. أما الحب، أما تلك العاطفة التي تشبه شرارات النار
التي تقدحها خناجر البرق فوق الماء والأشجار والحجارة،
فإنه لا أحد يشيرها في نفسي، أو يوقدها تحت أضلعى، إلا
هذه المرأة التي جئت راغباً منذ لحظات في الانسحاب من
حياتها. هكذا قالت إرادتى الوعائية، ولكن التمرین الروحى
أيقظ في نفسي إرادة أخرى أكثر صدقاً وعمقاً تكمن خلف
هذه الإرادة، وتقول بعكس قولها، وهي تأتى الآن لتفرض
مشيئتها وتبطل الاستجابة لأية إرادة أخرى غير إرادتها.

كانت عاصفة المطر ما تزال تعزف نشيدها الوحشى
خارج الدار. وكأنها ترید أن تغرق الدنيا وتصنع أسطورة
طوفان جديد، عندما قالت بدور :

- يبدو مثيراً أمر تلك الغرفة وبابها المغلق بالأسياخ
والمحصن بالطلاسم.

لم أقل شيئاً لأن ما يهمني الآن ليس تلك الغرفة وذلك
الباب، وإنما هذا الباب الذي تسلل منه ياقوت الشاعر إليها،
مستخدماً ألحانه وقصائده التي تشبه التعاوذ السحرية، لكي
يأخذها إلى عوالمه.

- يقولون إن الغرفة ليست إلا سجناً قديماً يحتوى على
الجامجم والهياكت العظمية لضحايا الظلم الذي كان سائداً في
عصور سالفة.

- إنه ماض جدير بالاهتمام والنسيان وسط غرفة لا
يدخلها الضوء والهواء.

- ولكن هناك من يقول أن وراء ذلك الباب المغلق نبع
ماء يعيد الشباب المفقود لكل من يستحم بمائة.

- ها هي الروايات تتناقض وتبطل بعضها بعضاً.

- فما الذي تصدق أنت؟

- وما أهمية أن أصدق أو لا أصدق؟ أنها غرفة معلقة
وستبقى كذلك مدى الدهر.

- ألا تثيرك أسرارها؟

- رأيتك تلك الليلة تتقرسین في النقوش والرموز
وكأنك تستطعین قراءتها.

- ليتى أستطيع، فلا بد أنها تقول شيئاً عما تحتويه
الغرفة. كم كان جميلاً أن تستجيب الأميرة لرغبتى وتقودنى
إليها. أتمنى أن يكون غنائى تلك الليلة أعجبها.

قلت لنفسى لابد أن غناءها أعجب الأميرة، ولكن هل
يعجبها ما فعله الآن. رأيتى صامتاً فواصلت الحديث:

- أحببتها منذ أن كنت أراها من بعيد تحضر
الاحتفالات وازدلت حباً لها عندما قابلتها وسمعت حديثها.
نظرت إليها مستغرباً وقلت لها أن هذا الكلام لا يستقيم
مع حقيقة أن الأميرة التى تتحدى عنها هي في ذات الوقت
المرأة الأخرى التى تقف على الطرف الآخر فوق أرض هذه
العلاقة.

- وهل حسبت أن علاقتى بك تغضب الأميرة.
أدهشنى ردھا، فبقيت صامتاً، حائراً، أنظر إليها
وأنتظر توضيحاً لما قالت. عرفت منها أن تقليداً عاشت عليه
المدينة منذ العصور السالفة يسمح لنسائھا اللاتي يرغبن في
إنجاب أطفال من صلب الأمير أن يذهبن إليه ويطلبن ذلك

منه. وهو اتصال لا يبيحونه إلا مع الأمير القادم من الصحراء وليس مع من يخلفه، لأنهم بذلك يحصلون على أبناء يرثون أسراره وكراماته. ولم يتوقف هذا التقليد إلا عندما جاء الرجل الصوفي الذي امتنع عن الانشغال بغير أوراده وتأملاته وصلواته. ولذلك فإن بدور لا تجد في هذه العلاقة إثماً ولا حرجاً ولا سبباً يغضب الأميرة، وترى أن تقليداً كهذا يجب أن يعاد إحياؤه حرصاً على تحسين الانساب والسلالات. أما إذا بقي تقليداً منقرضاً فهي سعيدة بأن تكون الاستثناء الوحيد. لقد أخبرت أمها قبل أن تأتي بأنها قادمة لمقاتلي وسألتها ألا تقلق إذا ما اشتد هطول الأمطار وفاحت الليل معى. فهي علاقة لا تثير حفيظة أحد ولا يرى فيها أهل المدينة شيئاً خارجاً على المألوف أو منافقاً للتقاليد.

كان ما قالته كلاماً غريباً يصعب تصديقها. لعلها تقوله من أجل الدعاية والتسليمة. تذكرت أنني سمعتها ذات مرة وبحضور أمها وأبيها تتحدث عن رغبتها في طفل يحمل أسرار سالك الدرس. اذن فإن ما قالته لم يكن مزاحاً، وما أقوم به الآن شيئاً لا يسىء إلى نرجس القلوب ولا يتناقض مع شرائع المدينة وتقاليدها، بل هو يأتي ترسيناً وتعزيزاً

لهذه التقاليد، وإذا ما حدث أن جاء أمير زاهد، ناسك، لا يقوى على القيام بأعباء هذا الواجب فالذنب ليس ذنبي. عقدت الدهشة لسانى فلم أجد كلاماً أعبر به عن الغطة التي داهمتى. مدلت ذراعى أضمها بهما وأدخلها في دفء عباعتى. أسلمت فمها إلى فمى ونهديها إلى صدرى. اشتبكنا في عنق الارتجاف واللهمه والشهوة والتوتر، وارتمنا فوق حشية القش، متلاصقين متلامحين نتبادل القبلات، وتنعم بحلوة الوصل، وتنسى العواصف والأمطار وصوت الريح والرعد، فلا نذكر إلا هذه العواصف والبروق التي يصنعها جسد يدخل جسداً، وشوق يداهم شوقاً. ولأول مرة أعانقها وأهصر قد़ها دون احساس بالإثم واللامة. ممرغاً وجهى في شعرها، لاثماً جبينها وعينيها، فمها وغمازتيها، عنقها وكتفيها، سرتها ونهديها، مستمتعاً بمحملية الجسد وعنوبته، ودفءه وسخونته، منتقلأً من طقس إلى طقس، ومن مدار إلى مدار، ومن فصل إلى فصل، دون أن أرى ملاك المعاصي والذنوب يقف على كتفى يلومنى ويعاتبى ويحمل مهمازاً يوخر به صدرى. بهجة تترفق صافية تحت الضلوع،

يباركها الليل والليل، والنار والمطر، وملائكة الضوء والظلم.

قلت لها وأنا مازلت ممدداً فوق حشية القش، أداعب خصلة من شعرها الذى تهدلت خدائره فوق صدرى، وانسكب عطره، حقلأً من الزنابق، ينتشر في دمى.

- وماذا عن ياقوت الشاعر؟

كانت خيول المطر قد توقفت عن الركض، وأعقب ذلك صمت لا يجرحه إلا انين الأشجار التي يصاجعها الريح. قالت وهي ما تزال تSEND رأسها على صدرى:

- وماذا عنه؟

- لن أسمح له بأن يأخذك مني مهما كان عزفه ساحراً.

رفعت رأسها تنظر باندهاش نحوى.

- من أين جئت بهذه الفكرة؟

كانت السنة النار قد تحولت إلى جمر. وفنديل الزيت ينشر لهاث صوئه فوق وجهها فيجعل لأهدابها ظلاماً تزيد أشعاع عينيها ألفاً وسواها. هربت من نظراتها قائلاً:

- ربما لأنني تصورت أنه يليق بك أكثر من أي رجل آخر. إنه أصغر سناً وأكثر وسامة مني، وهو صاحب شهرة في المجال الذي تحببنا، وله جمال يغرى النساء بحبه.

- لعاك زاهد في صحبتي واردته أن يكون صاحباً لي بدلاً منك.

استوت جالسة، فنهضت من رقادى لأنثى نجمة مرسومة بالحناء على ظاهر يدها وأمرغ وجهى في محمل كفها قائلاً:

- لن أطيق فراقك أبداً.

وملتحفاً بوزرة الصوف ذهبت أحمل المصباح أبحث في الغرف المجاورة عن مزيد من الشراب وأطباق الفاكهة المجففة لتكون عشاءنا، كما جئت بأكلمة وأغطية تتبع لنا أن نختمن بدهنها من برد هذا الليل.

لم يكن يأقوت الشاعر هو الذي يهدد علاقتنا. ما يهددها أنها علاقة تقف فوق أرض قلقة متحركة، ويجب الآن، وقبل فوات الأوان، أن أمنح الأمان لهذه العلاقة، وأخبر هذه المرأة، بأنني لا أريد من الدنيا إلا صحبتها، وأنني سأضع حدًا لهذه الازدواجية في الحياة والحب بأن أتحرر من

ارتباطي بنرجس القلوب، وأنصرف انصرافاً كاملاً لها. تعهد واضح صريح يضع العلاقة فوق أرض ثابتة ويضمن بقاءها واستمرارها. كنت مخطئاً عندما جئت هذا اليوم بهدف أن أضع نداء الواجب قبل نداء القلب، وما تريده المدينة قبل ما تريده عواطفني، وتصورت أن هناك تناقضاً لا حل له إلا بالتصحية بهذه العلاقة وهذه المرأة، لأن مدينة عقد المرجان أبهى وأكرم من هذه الصورة التي تصورتها. إنها لا ترضي بمثل هذه التضحيات ولا تجعل نداء الواجب منافضاً لنداء القلب، أو ما تريده هي منافضاً لما يريده الفرد. ولذلك فانني لن أرغم نفسي على شيء لا يريحي، ولن أخل عن عشق امرأة، أعرف الآن على وجه اليقين، أنه لا يلائم مقاس قلبي إلا مقاسها.

كان مريحاً أن أسمع بدور تحدثى عن ياقوت الشاعر بما لا أعرف. فهو يعيش هائماً في أودية الجن، ويتعشق امرأة أثيرية يقول بأنها لا تتجسد في صورتها الكاملة إلا له، ولا تظهر جمالها لأحد غيره، ألقت عليه شباكها وملكت عليه نفسه فلا يغنى لأحد إلا لها، ولا يستلهم الشعر من شيء في الوجود إلا من سحر عينيها وضياء ثغرها. ابتنى لنفسه كوخاً

على ضفاف البحيرة، واختار أن يعيش وحيداً لا ترافقه إلا غزاله تفهم حديثه وتطرد لعفه وغناهه. عدت من جديد أتأمل كلمات الأغنية التي أعطاها لبدور كى تغنىها. كانت تتحدث عن غفلة الإنسان الذى يظن بأن ما يراه ويسمعه هو كل شىء في الدنيا، لأن هناك وجوداً آخر للأشياء لن تستقيم لنا الحياة، ولن نعرف ما فيها من عمق وثراء، إلا إذا اهتدينا إليه، وأدركنا أسراره، ونفذنا إلى رؤية الإشعاع الصادر عنه. لقد رأى ما رأى، وعرف ما عرف، فامتلاً قلبه وهجاً أضاء له طريق العبور إلى تلك الأنثى، التي لا يلحق جمالها الذبول، ولا يلحق شبابها الهرم أو العجز، ولا ينضب حبه لها أو حبها له.

قلت لبدور بأن الأغنية تذكرنى بحديث ياقوت عن رجل يمشى فوق الماء، ويأكل العسل من أفواه الثعابين، ويعزف مزماره فتورق الصخور وتتبعه الأشجار. ومعنى ذلك أن ياقوت لا يرى عشيقته السرية فقط وإنما يرى أيضاً رجالاً أسطوريين لا يظهرون إلا له.

- ليس ياقوت وحده من رأى ذلك الرجل، فما أكثر الذين رأوه يمشي في قاع البحيرة ويتجول في شعابها

المرجانية يعزف مزاميره للأسماك والمحار. إنه سيد الكائنات التي تعيش معنا ولا نراها.

- وهل تصدقين هذا الكلام؟

- نعم، ولكن الإنسان يحتاج إلى بصيرة الشعراء ليرى ويسمع أبعد مما يرى البصر وتسمع الأذن. ألا تؤمنين أنت بذلك؟

- إنني لا أملك بصيرة الشعراء ومع ذلك أستطيع أن أرى الآن أقماراً وحدائق وأنهاراً لا تستطيعين أنت رؤيتها مهما كانت بصيرتك بالغة النفاد والقوة.

- ولماذا لا أستطيع؟

- لأنها لا تسكن مكاناً آخر إلا عينيك.

- إنك لا ترى إلا ما تحب أن تراه.

وذلك أيضاً ما يفعله ياقوت. إنه يرى ما يحب أن يراه حتى لو لم يكن موجوداً. لعله أراد أن يبقى وفياً للشعراء القدامى الذين يؤمنون بأن للإلهام وادياً اسمه وادى عبر، يستعيرون شعرهم من غناء كائناته التي لا يراها ولا يسمعها إلا الشعراء. أو لعل بدوره أرادت أن تريني من عناء التكير في علاقتها به، فاخترعت له عشيقه تنتمى إلى عالم

الجن. نظرت إليها وهي تستند إلى الكلمة المرفقة بالأشجار والأزهار والعصافير، فبدا وجهها وادعاً، بريئاً، مثل حقل من الغباء. إنتي أظلمها بمثل هذه الأفكار، وأظلم نفسي عندما أتردد في الاعتراف من جميل عطايها. طردت من رأسي نساء الجن، والكائنات المجهولة والمعلومة، وقررت أن أبدأ منذ الآن تنفيذ قراري بأن أكرس حياتي لها، وأسكن بها هذا البيت الذي كان ديراً لعبادة القمر. سوف لن أجده قمراً أعبده أجمل منها. وسأجعل من هذا المكان ديراً لعبادتها. لن أنام هذه الليلة وسأعتبرها ليلة عرسنا. سأكون حريصاً على أن أهتبل كل دقيقة أقضيها معها، وأعتبر أن أيام لحظة أنامها إهدار وتبديد لهذا الزمن الفاخر الذي لا يشبه الأزمنة الأخرى. إنتي أخاف خديعة الليل، وأخشى أن أنام وأستيقظ فأجد أن هذا الليل قد سرقها مني. خوف لا تبرير له، ولكنه يختفي في طوابيا الذات المغدورة دائماً، المتنقلة بندوب قديمة صنعتها رماح تخرج من قلب الظلم. عادت الرغبة موجعة، حارقة، لافحة، تسوقني إلى ممارسة الحب معها. وكأن هذه الليلة هي آخر الليالي، وكأن وليمة الفرح البادخ هذه، هي العشاء الأخير. كأنني لن أعيش لأراها غداً.

وفوق حشية القش المحاطة بالأشجار والزنابق
والطيور المرسومة فوق الأكلمة، رحلنا. عاد المطر إلى
الهطول. عنيفاً، فوياً، صاحباً، عاد إلى الهطول. تركنا
هسيس الأحطاب في موقد النار يتصدى وحيداً لهزيم الرعد
وعواء ضباع الريح، وبكاء الأشجار تحت نوافذ البيت.
تحولت حشية القش إلى بساط سحرى، يخترق بنا المطر
والضباب، ويحلق عالياً فوق القمم التي يغطيها الثلوج النقى
اللامع البياض. ويمضى ليجتاز بنا جبال السحب التي يجلس
فوقها ملائكة شداد، يديرون رحى كبيرة تصنع الرعد،
ويتقاذفون بشهب تصنع البرق. تعبر بنا درباً لبنياً مرصوفاً
بالنجوم ومسقوفاً بأجنحة الملائكة الذين يحرسون بوابات
السماء، يفضى إلى مروج مضيئة خضراء، نتوقف هناك
لنحضر الأعراس التي تقيمها الأعشاب والزهور، ونسمع
الأغاني التي تتشدّها الأشجار، ونلقط أقراص العسل من
مناقير العنادل، ثم نمضى في رحلتنا عبر أفلاك ومجرات،
حتى نرى كوكباً بالغ الصفاء والبهاء، يخفق بأضواء الياقوت
واللؤلؤ والزيرجد والزمرد والمرجان التي تزين عرش الإله

الحب، نخر عند قدميه ساجدين، نلثم الأرض ونؤدي له
صلوة الحمد والشكر.

لم تكن ممارسة الحب معها إثارة وشقاً، ولم تكن
طقساً جنسياً ينتهي بانطفاء تلك الرغبة. كانت اتحاداً وتلاحماً
مع سر الدهشة وجذور الفرح. ينسكب جسمها بين ذراعي
لحسناً أحستيه بكل نبض القلب وخفق الروح وعطش الخلايا.
أشرب ولا أرتوى. تنتهي المعاشرة فيتجدد الشوق إلى
معاشرة أخرى. وتتحول الرغبة إلى نجمة لا تطفئ حتى
تضيء مرة أخرى. فلم نكن سوى جسدٍ مقسومٍ إلى اثنين
يتحقق الآن التحامه وакتماله. تجربة جديدة، ثرية، مبهرة، لم
أعرف لها مثيلاً فيما سبق من تجارب، حتى في أول معرفتي
بالشهوة وبداية اكتشافي لأسرار الجنس وسطوته. كأنني
أختزن في جسمى أجساداً عطشى كلما ارتوى واحد منها
ازداد الآخر عطشاً.

ولا أدرى إن كان ما أحسست به نوماً في ذلك الهزيع
الأخير من الليل، أو هو مجرد خدر لذذ أثقل الأجنان
والبدن. فقد جاء الصباح سريعاً يوقدني من غيبوبة الفرح.
فتحت بدور شباكاً، فشعشع النور وامتلأت الغرفة بهدير

الحياة الذى نحس به قبل أن يقتحم بضوضائه مداركنا. يأتى ذلك الهدير فيوقط حواسنا ويرغمنا، مهما كان حظنا من النوم، على أن نهجر مخادعنا. رفعت الأغطية مثائياً، أنسر ذراعى في الهواء وأفتح بجهد عينين يثقلهما النعاس، حاولت الوقوف فلم أستطع. عدت إلى الاستلقاء ملتحفاً بالأغطية. كانت بدور قد استيقظت قبلى، اغتسلت وأدت تمرينها الروحى وارتدى برونسها وجاءت تمد يدها، تعينى على النهوض قائلة:

- قم لتشاهد أجمل صباح رأيته في حياتك.

أعرف أن مشهد شمس شرق بعد عواصف المطر شيء يبهج القلب والبصر. ولكن رأى ثقيل وجسمى يمتنى ارتعاشاً وبرداً. أدركت أن أمطار اليوم السابق التى سخرت منها ومشيت هازئاً أتحدى حوافر خيلها، قد جاءت اليوم تعاقبى وتزرع بردتها في عظامى. سألت بدور أن تبقى بجوارى لأنى لا أريد أن أترك هذا المكان ولا أرغب في الانتقال إلى أى مكان آخر، وإذا كان الأمير المؤسس لديانتهم الجديدة قد عاش زاهداً، ناسكاً، فسأقوم منذ اليوم بإحياء سنته، وسابقى زاهداً ناسكاً لا أغادر هذا الدير. ولكن بدور

أرغمتى على النهوض لأن بقائى نائماً فوق الأرض لن يزيدنى إلا مريضاً. لم تستطع بهجة الصباح الجميل أن تمنع عنى ارتجافاً مضى يزداد شدة وعفافاً، مع كل خطوة أخطوها. ركينا قارباً أوصلنا إلى وسط المدينة حيث افترقنا. وقفـت أشبعها وهـى تمـشى بـمحاـذاة بنـاء مـسيـح بـالـأشـجارـ، وـقـبـلـ أن تـغـيـبـ خـلـفـ انـعـاطـافـتـهـ التـفـتـ وـابـتـسـمـتـ، رـفـعـتـ يـدـهاـ مـوـدـعـةـ فـرـفـعـتـ لـهـاـ يـدـىـ، وـبـخـطـىـ وـاهـنـةـ مشـيـتـ بـاتـجـاهـ الـقـصـرـ. دـخـلـتـ إـلـىـ غـرـفـةـ النـومـ وـارـتـمـيـتـ فـوـقـ السـرـيرـ. جـاءـتـ نـرـجـسـ الـلـوـلـ تـسـأـلـىـ عـماـ حدـثـ. رـأـتـىـ أـرـتـعـشـ مـرـضاـ وـسـعـالـاـ وـلـاـ أـقـوىـ عـلـىـ الـكـلـامـ فـأـخـضـرـتـ لـىـ مـشـرـوـبـاـ سـاخـنـاـ مـنـ رـحـيقـ الـأـعـشـابـ. اـنـسـكـبـ فـيـ جـوـفـيـ دونـ أـنـ يـسـكـنـ الـرـيـاحـ الـبـارـدـةـ الـتـىـ تـهـبـ فـيـ صـدـرـىـ. أـوـيـتـ إـلـىـ الـفـرـاشـ وـدـخـلـتـ فـيـ نـومـ مـضـطـرـبـ تـمـلـأـهـ الـكـوـابـيـسـ. نـفـ منـ عـوـالـمـ قـدـيمـةـ تـسـيـقـظـ فـيـ ذـاـكـرـةـ الـحـلـمـ. نـسـاءـ عـرـفـتـهـنـ فـيـ أـمـاـكـنـ مـخـتـلـفـةـ، وـعـبـرـ مـرـاحـلـ مـتـقـاـوـتـةـ مـنـ الـعـمـرـ، يـتـجـمـعـنـ الـآنـ حـولـ سـرـيرـىـ وـيـحـاـصـرـنـىـ بـأـعـيـنـ زـجاجـيـةـ وـرـؤـوسـ تـنـدـلـىـ مـنـهـاـ الـأـفـاعـىـ. أـرـىـ أـبـىـ وـأـمـىـ يـتـعـارـكـانـ وـسـطـ خـيـمةـ تـضـرـبـهـاـ الـرـيـحـ، مـنـصـوبـةـ فـيـ الـخـلـاءـ، يـشـدـ هـجـومـ الـرـيـحـ، وـتـطـيـرـ بـهـمـاـ الـخـيـمةـ فـيـ الـفـضـاءـ بـيـنـمـاـ هـمـاـ

يوackson العراق. حقل الغام يتقدّر وينشر دخاناً كثيفاً أسود ساخناً يملأ الذاكرة برائحته الكريهة. استيقظ مذعوراً واحاول فتح عيني فلا أستطيع، وكأنهما مختومتان بالشمع. أشعر بيد تتحسس جبيني وأسمع صوتاً يدعونى أن أغمض عيني، فأظنه الشيخ الصادق يريدى أن أرى البياض، أرفض أن أرى شيئاً، ثم أعرف أن الصوت هو صوت نرجس القلوب تسألنى أن أواصل النوم لأننى ما زلت بحاجة إلى الراحة. أضع رأسى فوق الوسادة، و لكن فقيه المدرسة القرآنية يطردنى من حدائق النوم، يأتى حاملاً سيخاً من الحديد المحمى بالنار يتوجه به نحوى، يريدى معاقبتنى لأننى لم أحفظ سورة الإسراء والمعراج. أجلس في سريري هارباً من عقابه، ويأتى الصوت الأنثوى يطالبنى بالاستفقاء والراحة. أنام قليلاً فيضعون رحى ثقيلة فوق صدري، تدور وتسحق عظامى، أرى نفسي أتحول إلى دقيق، فأقوم مذعوراً لأجد أن الطبيب حسان جاء بمراده بذلك بها جسمى.

أطیاف ورؤى كثيرة، مضطربة، مشوشة، كانت تزورنى وتلزمنى خلال ستة أيام من المرض، وعندما تعافت في اليوم السابع أدركت وأنا أحس بالخجل أن اسم

بدور كان يتردد طوال الوقت في هذيانى. ليس فقط أثناء النوم وإنما في لحظات اليقظة أيضاً. أسأل عنها وأطلب أن يأخذونى إليها. كنت قد ركضت كثيراً في فضاءات الحلم وراء وجهها وهو يظهر ويختفي ويقترب ويبعد ويشرق ثم ينطفئ. ولكننى لم أدرك إدراكاً واضحاً أنها زارتني أثناء مرضى، إلا الآن وأنا أستحضر ما مرّ بي. أذكر كل تفاصيل الزيارة. جاءت إلى هنا وجلست على هذا الكرسى الذى تغطيه القطيفة الزرقاء، بجوار رأسى، قائلة بأنها عرفت بمرضى فأنت تحمل لي دواء ممزوجاً بعسل النحل الذى يربىيه والدها في حديقة البيت. سألتها أن تنتظرنى حتى أرتدى ملابسى وأذهب معها، لأننى لم أعد أطيق فراقها، أو البقاء بعيداً عنها. قلت لها ذلك أمام نرجس القلوب التى كانت تجلس بمحاذة السرير، على الجانب الآخر منه، وفي يدها كوب ماء ممزوج بالأدوية تربىنى أن أشربه، وبجوارها وقف الطبيب والاسكافي. لم أكن واعياً لحظتها لما أقول، أو مدركاً لم تحمله كلماتى من مهانة لنرجس القلوب. ولا أدرى كيف أقنعتى بدور البقاء في سريري حتى أتماثل للشفاء. توقعت بعد أن تعافيت أن أرى الأميرة تأتى غاضبة تطلب

تفسيرًا لما قلت. أدهشتني أنها لم تقل كلمة واحدة حول هذا الموضوع، ولم أجد في سلوكها ما يوحى بالغضب أو الاحتجاج. كانت تقبل نحوى باسمة الوجه والعينين، تخطر في مشيتها الأميرية وأثوابها الزاهية الألوان كعرجون من الضياء. تطعنى وتسقينى وتسكب حنانها في مهجنى فأحس بالخجل لما بدر منى. وعندما أردت أن أذهب لأباشر عملى، أبقتني في السرير لكي لا أصاب بانتكاسة تعيد لي مرضي. استجابت لحربها وعنایتها، وبقيت ملزماً غرفة النوم لمدة أيام ثلاثة، لا أفعل أثاءها شيئاً سوى الاستماع إليها وهي تقرأ لي أشعار المتصوفين من اتصلوا بأسرار الكون، واهتدوا إلى حقائقه، واكتشفوا بها عهده الكامن في أنفسهم. وكنت وأنا أسمع الأشعار التي تقرأها، وشذور الحكمة التي تتناقل من شفتيها، أسأل نفسي كيف سأقوى على تنفيذ القرار الذي اتخذه بالانفصال عنها، والانتقال من هذا القصر إلى الإقامة في الدير القديم بصحبة بدور. لا شك أن نرجس القلوب قد سمعتني طوال هذه المدة أهتف باسم بدور، ورأيتني أتعلق بأهداب ثوبها عندما جاءت لزيارتى، فهل تراها اعتبرت ذلك كله مرضًا وهذياناً لا يستحق أن توليه اهتماماً. ليتها تأتى

الآن غاضبة، تطردنى من هذا القصر، وتعفينى مما أحس به
من كدر وحرج.

انتهت أيام الراحة، وجاء الاسكافي جلال الدين يرافقنى
إلى الديوان، حيث أشرف على مراسم الاحتفال بإرسال عدد
من المبعوثين إلى خارج البلد، يحملون لؤلؤاً ومرجاناً
يقايضونه ببضائع من البلد الأخرى. خرجنا أمام القصر
لتوديعهم وهم يرحلون برفقة حراس يؤمنون لهم الطرقات،
ورجعنا إلى الديوان لأسمع جلال الدين يقول:

- كنت تردد كثيراً اسم بدور أثناء مرضك.

انقضت مداركى تعلن حالة استفار واستعداد لخوض
المعركة القادمة. ها هو يفتح الآن باباً لم أكن أجد ما يكفى من
الشجاعة لأن أفتحه بنفسى.

- لا بد أنه اسم إنسان عزيز تركته خلفك قبل أن تأتى
إلى هذه المدينة.

أتراه يقول ذلك متخابثاً، متجاهلاً ما رأى وسمع عندما
جاءتى بدور. وأراد أن يسلك طريقاً ماكراً لمعرفة حقيقة
العلاقة التى تربطنى بها. هل أجاريه في أفكاره واتخاب
مثله قائلاً بأنها مجرد ذكرى وفت على مرضى من عالم

قديم. ألم ترَاه صادقاً فيما يقول، لا يعرف شيئاً عن بدور ولم يحضر زيارتها، وإنني تحت تأثير الحالة المرضية تصورته موجوداً. رأيت أن أتجاهل ما قال وأبحث عن مدخل آخر للحديث عن هذا الموضوع.

- عرفت أن هناك تقليداً كان سائداً في المدينة، يبيح لنسائها الاتصال بالأمير، التماساً للبركة وطمعاً في إنجاب أطفال منه.

- إنه تقليد بائد انتهى بانتهاء الديانة القديمة ولا سبيل إلى إحيائه.

أوصد الرجل في وجهي هذا الباب، وأضاع فرصة هذا التقسيير المدهش الجميل الذي هيأت نفسى لأن أقوله لهم، وهو أن المرأة جاءت ترتجى طفلاً يرث أسرار الرجل الذي قطع صحراء المهالك. أدركت أن المهالك لم تنته من طريقى بعد، وأنه لا أحد سوى نرجس القلوب من لها حق أن يعرف هذا الموضوع. سأذهب حالاً إليها، وسأكون صادقاً معها، فأخبرها بكل محدث. وجدتها تعانى إحدى نوبات الوجه، وقد أحاط بها الطبيب والمرضية. تقدم بها الحمل، وتکورت بطنها، وصار الجنين عبئاً يصيّبها بالاعياء. كان الطبيب

يوصى الممرضة بأن تبقى دائمًا بجوارها، فلا تدعها تقوم بأى عمل يتبعها. أدركت وأنا أقف منفعلاً أمامها، إننى لن أستطيع أن أفتحها في مثل هذا الموضوع قبل أن تنتهى من وضع مولودها.

- إذن فأنت تحب اسم بدور.

تضاهرت بأننى لا أفهم ما تعنيه، فأضافت:

- لم يكن على لسانك إلا هذا الاسم طوال أيام المرض، تصورت أنك تريد أن نسمى به المولود إذا كان أنثى.

أدهشنى أن تقول هى أيضاً هذا الكلام وكأنها لا تعرف صاحبة الاسم.

- أليس هذا هو اسم المغنية التى جاءت تزورنى أثناء مرضى؟

- لم يأت أحد بهذا الاسم لزيارتى.

تنفست بعمق وارتياح وأنا أكتشف أن تلك الزيارة التى تملأنى بإحساسات الحرج والخجل، لم تكن إلا حلماً، والعسل الذى جاءتى به ليعيد لى عافيتي، لم يكن إلا هدية تلقيتها منها أثناء النوم وليس أثناء البقاء. إنها تعرف كيف تكتم

أسرارها وتصون حبها. حاولت بطريقة لا تنسى إلى كبريات الأميرة، إن أسألها إن كانت تذكر تلك المغنية التي جاءت إلى القصر لحياء العيد الألفي لإعادة بناء المدينة. ولم أشأ أن أبدى تعجباً أو ضيقاً عندما قالت بأنها لا تعرف مغنية بهذا الاسم، ولم ترها تدخل القصر، أو تغنى في ذلك الحفل. قلت لنفسي بأنها امرأة تقابل بشرأً كثرين، وتملاً ذهنها بصورة الطفل القادم، فما عادت تستطيع أن تذكر كل الأسماء وكل الوجوه. تركت القصر وذهبت أنسقط أخبار بدور وأبحث عنها بين المغنيين الذين يشاركون في إحياء الاحتفالات، لم أجدها، ولم أتعثر على أحد يعرفها. أثار هذا الغموض فلقي، فذهبت في عتمة الغروب أطرق باب بيتها. لم أسمع ردًا فطرقه بقوة لكي أرغمها على الخروج إذا كانت لسبب لا أدريه تخفي نفسها عنى. خرجت من الباب المجاور امرأة لا أعرفها، تحمل طفلاً رضيعاً في حضنها، وتبدي انزعاجاً من سلوكى. ألقيت للمرأة بكلمة اعتذار، ورجعت أنتظر أن يحين الموعد الأسبوعى للقائنا لكي أعرف على وجه اليقين ما حدث لها. جاء ذلك اليوم فذهبت مبكراً إلى الدير القديم. لم أجد أحداً، فأخذت من مخزنه شراباً وجلست على عتبة الباب

أنتظر قدمها. انتظرت طويلا دون أن تأتى. جاء مع نهاية النهار النوى الشيخ يسوق أمامه العتمة والظلم. سأله إن كان قد رأها في الأسبوع الماضي عندما أعاقى المرض عن لقائها. قال بأنه لم ير أحداً يأتى إلى الدير أثناء غيابي. أفهمته أن المرأة التي أعندها هي ذات المرأة التي كان يراها مع كلما جئت إلى هذا المكان. وعندما قال بأنه لا يتذكرها، وجدت نفسي لأول مرة في هذه المدينة أفقد كل سيطرة على أعصابي وأرفع صوتي غاضباً:

- كيف لا تذكرها وأنت الذي جئت إلى الشرفة مبهوتاً تستمع إلى غنائهما عندما أحضرت لنا سماكاً في أول يوم نأتى فيه إلى هذا البيت.

- تخذلني أحياناً ذاكرتى فلا تلمنى إن لم أذكرها.

- استحضر عقلك الغائب أرجوك. ألا تذكر نزهتنا فوق القارب ليلة أعياد القمر ؟

- نعم، أذكر أنك كنت سعيداً بتلك النزهة، مستغرقاً في تأمل ومناجاة الطبيعة.

- ألم تكن هي تجلس بجوارى فوق القارب ؟

- هناك بشر لا يظهرون إلا أئمَّا أصحاب الأسرار من
أمثالك.

تركته وذهبت حانقًا. إِنِّي لَا أَمْلِكُ الْآنَ عَقْلًا أَفْكَرُ بِهِ،
وأَهْتَدِيُّ عَنْ طَرِيقِهِ، إِلَى تَقْسِيرِ هَذِهِ الْأَحَاجِيِّ. هَلْ كَانَتْ تِلْكَ
الْحَيَاةُ الَّتِي عَشْتُهَا مَعَ بَدْوِرِ مَجْرِدِ حَالَةِ سَرَابِيَّةِ ابْتَكَرُهَا ذَهَنِ
أَدْمَنِ مَعَاشِرِ الْأَسَاطِيرِ وَالْأَوْهَامِ؟ وَهُلْ كَنْتُ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ
أَصْنَعَ وَهَمَا أَهْرَبَ إِلَيْهِ مِنْ مَدِينَةِ غَفْلَةِ عَنْهَا الزَّمَانِ وَهِيَ
رَاقِدَةٌ وَسَطْ سَحَابَ الْفَرَحِ؟ أَمْ هُلْ تَرَاهَا كَانَتْ حَقًا اِمْرَأَةٌ
أَثْيَرِيَّةٌ، لَا تَظْهَرُ لِأَحَدٍ غَيْرِيَّ كَمَا كَانَتْ تَقُولُ عَنْ اِمْرَأَةٍ
يَاقُوتُ الشَّاعِرِ؟ إِنِّي لَا أَسْتَبِعُ أَنْ يَكُونَ مَا حَدَثَ مُؤَامَرَةً
أَحْكَمَ الشَّيْخُ ذُو الْلَّحِيَّةِ الْحَمَراءِ حَلَقَاتِهَا، يَحْمِيُّ بِهَا الْمَدِينَةَ مِنْ
حَمَاقَتِيِّ، وَيَمْنَعُ بِهَا حَدُوثَ أَزْمَةٍ فِي الْقَصْرِ. عَرَفَ مَا اِنْتَوِيَتِ
عَمَلَهُ، فَذَهَبَ إِلَى بَدْوِرِ يَسَّالَهَا أَنْ تَخْتَفِي مِنْ حَيَاتِيِّ، وَيَسْأَلُ
الآخَرِينَ أَنْ يَنْكِرُوْا مَعْرِفَتَهُمْ بِهَا. وَأَيَّاً كَانَ الَّذِي حَدَثَ، فَإِنْ
هُنْكَ حَقِيقَةٌ وَاحِدَةٌ أَعْرَفُهَا تَمَامَ الْمَعْرِفَةِ، وَهِيَ أَنْ بَدْوِرَ لَمْ
تَكُنْ وَهَمَا، وَإِنَّمَا وَجُودُهَا حَقِيقَيَا لَا سَبِيلٌ إِلَى نَقْضِهِ، عَاشَرَتْهَا
وَامْتَزَجَتْ بِهَا رُوْحًا وَبَدْنًا، ضَوْءًا وَظَلًا وَعَطْرًا. فَكِيفَ يُمْكِنُ
أَنْ يَكُونَ وَهَمَا مَا شَارَكَتْ كُلَّ الْحَوَاسِ فِي الاحْتِفَاءِ بِهِ

والارتفاع منه. هل هو الجنون؟. كيف يداهمنى الجنون وأنا
محصن بعرائش الورد ومسك الأرض الذى يعقب على مدى
الحصول الأربع. لعلنى أجد جواباً لدى ياقوت الشاعر. إنه
الرجل الوحيد الذى لا يستطيع أن ينكر معرفته بها وعلاقة
الفن التى بينهما. ذهبت إليه حيث يقيم. اختار شريطاً من
الأرض يدخل في ماء البحيرة، وابتدى فوقه كوخاً، وزرع
مشائلاً نعناع وأشجار ورد وقرنفل وحناء، واعتزل الناس
متقرغاً لمعازلة حبيبته المجهولة، فلا يظهر إلا مغنياً أو
عازفاً في الاحتفالات الكبيرة. دعاني إلى الجلوس فوق
محراب خشبي يلتصق بحافة البحيرة، وجاءت غزالتة ترتع
بجوارنا، كان الوقت صباحاً، والهواء منعشأً، أحببت أن أبقى
قليلًا في هذا الجوار العامر بالسلام والهدوء. سأله عن معنى
النجمة الموسومة بالحناء على ظاهر يده، فقد رأيت وشماً
مثلاً على ظاهر يد بدور. قال إنها نجمة يضيّط بها حركته
مع حركة الأفلاك الدائرة في أبراجها، ويراهما فلا ينسى وهو
يمشى فوق الأرض، انتماه إلى الموطن الأصلي للبشر.
رأيت كأن نجمة الحناء استعارت شيئاً من بهاء النجوم فبدت
مشعة متألقة. سأله إن كان يذكر مغنية اسمها بدور، تحمل

في ظاهر يدها وشماً مثل وشمه. رأيته يرفع رأسه مستحضرأً صورتها، فأعطيته أوصافها، وقلت له قصتي معها، وقصة الآخرين الذين أنكروا معرفتهم بها، وسألته أن يعيينى على الاهداء إليها، لأننى حائر لا أعرف سبباً لاختفائها، ولا داعياً يدعو الناس إلى نكرانها، تدفقت في الحديث عنها، وكأننى أريد بذلك تأجيل الاستماع إلى جوابه الذى أخشى أن يأتى مشابهاً لأجوبة الآخرين. لكنه أبلغنى بأنه يعرف تماماً المرأة التى أقصدها، وأنها تأتى دائماً إلى كوخه تستمع لأشعاره وألحانه التى تحبها. جاءت إجابته ترسل في سمائي أسراباً من طيور الفرح، التى سرعان ما اختفت عندما أضاف، انه يعرف نساء كثيرات مثلها، لا يظهرن إلا لمن أحببن، ويمتنعن عن الظهور أمام الآخرين. وهو يرى أن ما حدث لى مناسبة للغبطة والفرح، لأن من أعطاه الله بصيرة كصيرتى، وألهمه حب امرأة لا تكشف عن نفسها إلا أمامه، يجب أن يكون شاكراً هذه النعمة. وأبلغنى في نهاية اللقاء، إنه سوف ينقل لها رسالتى عندما تأتى لسماع وحفظ ألحانه، وسيرفع أى التباس وقع بينى وبينها. مؤكداً بأن اختفاءها ليس إلا دللاً تختبر به حبى،

وتعرف عن طريقه مقدار شوقى إليها. لم أجد في كلماته أى عزاء. إنه يهيم بأودية الجن وطن أتنى مثله أريد أن أهيم بها. إننى أعرف يقيناً أن تلك المرأة التى سافر وراءها القلب ولم يعد، ليست امرأة مثل نسائه الوهميات، المنتيمات إلى عالم الأطيااف، والمصنوعات من ذرات الضوء والهواء. إنها امرأة من عالمنا، تغنى في الأفراح، وتعشق الزنابق والورود، وتحب الاغتسال عارية في مياه التبادل أيام الربيع، لن أتوقف عن البحث حتى ألقاها، وسأعرف عندئذ القصة التى تكمن وراء اختفائها. لم تفلح زيارتى إلى بيت الشاعر في أن تسكت مواجهى، ولم أجد إنساناً آخر يمكن أن يضيئ السبيل الذى أظلم أمامى. بقيت فيما تلى ذلك من أيام مشغولاً بهذا اللغز الذى أنتب حسقاً يجرح روحي، ويعطل قدرتى على الاستمتاع بظاهر الجمال من حولى، فما عدت كما كنت سابقاً أتجول مبهوراً بترافق الأضواء والظلال فوق الوجهات المزينة بالنقوش وعرائش الكروم، متأملاً جمال الحائق والحقول، وبهجة الماء الدائر في السوافي. صرت أذهب لأشاهد الاحتفالات بقلب غير ذاك القلب الذى كان يركض نحوها، ويمد يداً لالتقط الفرح الطالع كالزهر من

حلقات الراقصين. لم أعد أرى فرحاً ولا زهراً، أو أمد لأحد
يداً أو قلباً، وإنما أرفع بصرأً يائساً متعباً أبحث عن امرأة
تحنى غدائراً شعرها فوق عود مرصع بالأصداف، وترسل
غناء يضيء فناديل الفرح داخل الصدور. أعاود مساعلة
النوتى الشیخ فلا أفوز بشيء جديد، وأذهب مرة أخرى إلى
بيتها لأجد بيته خالياً مهجوراً لا يشبه البيت الذي رعى نبتة
حبنا حتى ازهرت، ولا أرى في حديقته توتاً ولا عشباً ولا
سمكاً ولا حريراً ولا نحلاً ولا عسلاً، فأنكر أن يكون البيت
بيتها. أهرب منه ولا أفك في العودة إليه. و كنت أرى في
الطرقات نساء يشبهنها، فأذهب إليهن راكضاً، باسطاً كف
الأمل والرجاء، لاكتشف عند اقترابي منهن، انهن نساء
غيرها، فأعود وأواصل بحثاً عبثياً لا طائل منه ولا جدوى.

قالت نرجس القلوب وهي تراني أجلس صامتاً إلى
مائدة الإفطار، لا أكاد أقوى على مضغ الطعام:

- تبدو مهموماً عازفاً عن الأكل، فما الذي يضايقك ؟

كيف استطيع أن أبوح لها، بأنني واقع في أسر امرأة،
أذاقتني أقراصاً من عسل السعادة لم أعد أقوى بعدها على
استسلامح أى طعام مهما كان دسماً، شهياً، كطعمها. كيف

أستطيع أن أقول لها أيضاً، إن هذه المرأة اختفت فجأة من حياتي، وإنني أتمنى أن كل من في القصر بأنهم شركاء في تدبير مؤامرة اختفائها. ظلت هذه الفكرة تسيطر على ذهني، وأجد فيها تفسيراً وحيداً لما حدث، وظلت مهمتي هي أن أجد خيطاً يكشف السر، ويفضح المؤامرة. ثم بدأت يوماً وراء يوم أتخلى عن هذه القراءة التأمورية التي لم أجده دليلاً يؤكدها. وأفكر فيما إذا كانت حقاً مجرد كائن لا ينتمي إلا إلى عوالم الحلم والذاكرة المغمومة في الأساطير. استعدت اللحظة التي رأيت فيها بدور لأول مرة. وكيف تهياً لى، بأن هذه المرأة لا يمكن إلا أن تكون إبداعاً خاصاً من صنع المخيلة، وكيف أحست أنني ألتقي نفحة مباركة من الكشف والالهام، تجعلني قادراً على اجترار هذه المعجزة، وابتكر امرأة لها مواصفات ومقاييس لا تناسب إلا قلب صانعها. امرأة تحمل ملامح امرأة الحلم، وبهاء عينيها، وبهجة حضورها، وثراء أنوثتها، وكل مظاهر الجمال التي لا يمكن أن تتوفر لامرأة واحدة في الدنيا، إلا هي. تذكرت أيضاً أحاديثها، وأغانيها التي تجعل من أسرار الكون موضوعاً لها، والأشياء التي تختفي خلف الأشياء التي نراها ونسمعها، والتي لها وجود

حى نابض لا يراه ولا يحس به إلا من ملك شفافية الحلم
والرؤيا. فهل كانت تشير بتلك الأحاديث والأغانى إلى نفسها؟
وتكشف بها عن هويتها الأثيرية ومادتها المصنوعة من
جوهر الوجود وعناصره التي لا تدركها الحواس؟ وهل كانت
رؤيتها لها، وحياتها معها، شيئاً من انجازات بصيرتها
شفافية الرؤيا؟ وهل معنى اختفائها إننى لم أعد أملك موارد
روحية تعيننى على النفاذ إلى عوالمها، وتمزيق السجف التي
تحجبها؟.

كنت أجلس وحيداً في الشرفة التي شهدت لقاءاتنا،
أستمع إليه هدير شلالات الماء، وأرقب الضوء المذاب في
الأفق لحظة الغسق، وأستقبل هواء بارداً منعشأً يهب من
ناحية الجبال، محملاً بعبير أشجار مسك الليل، مستغرقاً في
التكير بسر احتجابها، فائلاً في نفسي بأن الجمال الهارب من
هذا المشهد، لن يعود إليه، إلا إذا عادت بدور تعزف عودها
وتتشير ضوئها، وتبعث في هذه اللوحة المتعددة الألوان حياة
ومعنى. عندما أحسست بقلبي بعنة يخنق ذلك الخفكان الذى
يسبق حضورها، ويبشر بدنو مجيئها. تهيات لاستقبالها، وأنا
لا أكاد أصدق حدى ومشاعرى. أقف ذاهلاً أرني إلى لباب

الذى يفضى إلى الشرفة، وأحس كأن الكون كله توقف عن الحركة وبقى صامتاً، بانتظر معى ظهور المعجزة. مرت لحظات قبل أن ينبثق في قلب الصمت والسكون صوتها، متدايقاً بالغناء، ومصحوباً بأنغام العود. أرهافت سمعى جيداً لكي لا يكون هذا الغناء مجرد اجترار لذكرى جلساتها معى. تأكيدت بأننى لست حالماً ولا واهماً، وأن دور موجودة في هذا المكان تعزف عودها وتغنى ذات الأغنية التي تتحدث عن الأشياء الكامنة خلف مظاهر الأشياء. تطلعت شمالةً وبيمناً، داخل الشرفة وخارجها، دون أن أراها. كان الغناء فريباً فذهبت أطوف غرف البيت، غرفة غرفة، وأفتش عنها بين أركانه وزواياه، وخلف أمتعته وقواربه وصناديقه. لم أجد أحداً فرجعت إلى الشرفة أنصت حائراً إلى غنائها، محاولاً أن أهتدى إلى مكانها السرى. تركت البيت وذهبت أبحث عنها بين الأشجار، بأمل أن تكون قد افترشت الأعشاب، وجلست تعزف وتغنى تحت هذه العرائش التى تتسلق الجدران. بدأ الغناء يبتعد ويتلاشى. وقفت أمام مدخل البيت أهتف باسمها وأناديها لعلها تسمع النداء. اخفي الصوت واحتفت أيضاً بقلياً أشعة الشمس التى كانت تلون

السماء. هبط الظلام وعاد النورى إلى البيت مهرولاً يسألنى عن سر هذا الصراح. تركته وذهبت أركض عبر الحقول والظلام. ارتطمت برجل انبثق فجأة واعتراض طريقى. كان ياقوت الشاعر يستوقفنى قائلًا، إنه التقى منذ لحظات ببدر وأبلغها رسالتى، وأخبرها بمدى عشقى لها وعذابى لأننى لم أرها. وهو لم يتركها إلا بعد أن أبلغته بأنها ستأتى هذا المساء لزيارتى. ويسألنى إن كنت قد التقى بها. قلت له بأننى سمعت عناءها دون أن أرها، وصرت أبحث عنها فلم أجدها، حتى تهياً لى أن ما سمعته لم يكن إلا وهمًا وخداعاً للحواس. أفهمنى ياقوت بأنها تفعل ذلك لأنها تحبني، وأرادت أن تمنحنى أثمن شيء لديها وهو هذا الصوت الذى احتوى جوهر جمالها وشخصيتها. رأته مفتوناً بجمال مظهرها، فأرادت أن تحررنى من هذا الافتتان الذى يسلب الإنسان حرية وإرادته. حجبت جسدها عنى، وأخفت مظاهر أنوثتها، فلا أستطيع أن أرى غير جمالها الحقيقى، الذى يجعل حبى لها تحرراً وانعتاقاً، وعلاقتى بها مصدر طمأنينة وسلام. سألته، ذاهلاً عن الكلمات التى قالها، موقفاً أن عناءها لن يطفى شوقى لسماع النشيد الذى يعزفه جسمها كله، إن كنت

سأراها في صورتها الكاملة مرة أخرى. أجابني قبل أن يختفي في الظلام بأنني سأراها عندما أحقق أعلى مرتب التواصل الروحي معها.

تعودت بعد ذلك على سماع صوت بدور في أوقات مختلفة من الليل والنهار، وفي أماكن غير المكان الذي سمعت فيه الغناء لأول مرة. صرت أسمعه وأنا أعمل بحدائق القصر، أو أتجول في شوارع المدينة، كما أسمعه وأنا أزور الدير القديم. لم يعد قريباً قوياً كما كان ذلك المساء. صار الآن يأتي وكأنه ينبع من مكان في السماء، كأنها اختارت أن تجلس فوق سحابة هائمة في الفضاء، تعرف عودها وترسل غناءً لا يسمعه أحد سواي. لم أعد أقفز من مكانى، ألتلفت شمالاً ويميناً، أفتشر عن مصدر الصوت، ولم أعد أجري عبر الحقول هاتقاً باسمها، فقد تعودت على سماعها، وتالفت مع غنائها وهو يأتي من لا مكان. أيقنت أن طوراً جديداً شهد علاقتي ببدور، حيث أصبحت تمثل في ذهنى حضوراً يمتزج بروح المكان، ويسرى مع الهواء الذى أتنفسه. ليكن ما أسمعه مجرد صدى لأفكارى، أو تجسيداً لرغبة ترقد في حناليا ذاكرتى. ليكن نابعاً من نقطة في القلب

أو نقطة في السماء، فقد صار هذا الصوت، بعنه البعيد، وشفافيته الذائبة في شفافية الضوء، جزءاً أصيلاً وحميناً من حياتي وجودي، يرافقني أينما ذهبت، ويسهل في بدني ممتزجاً بدوره الدم في الأنسجة والعروق. لم يعد يعنيني أن ألقاها أو لا ألقاها، لم يعد يهمني أن تظهر أمامي بكمال صورتها أو لا تظهر. يكفي أن تواصل معها هذا التواصل اليومي، المفرح، العميق، الذي لا تختالله لحظة كدر أو جفوة أو خصومة ولا يثير في نفسي قلقاً، ولا صراعاً بين ما يريد الواجب وما يريد القلب، وأراها تمتزج بمظاهر الوجود وعناصره، وتصبح مصدراً من مصادر بهجته وجماله.

اختفت سحب الكابة التي أثقلت صدرى، وأفاقت هناء الناس الذين حولى، وسببت كدرأ لنرجس القلوب التي كانت كثيرة الانشغال بما طرأ من تبدل على حالتى. إنها امرأة لم تعاشر الحزن ولا تعرف لماذا يكون الإنسان حزيناً مثلى. أسعدها الآن أن تراني أقبل على الحياة معها بروح جديدة، أقرأ لها الكتب التي تحبها، وأصحابها عند المساء في جولات قصيرة لا ترهقها، عبر حدائق القصر. كانت تباشير الربيع تلون الأشجار وتنتحل للعصافير أن تواصل الغناء طوال

النهار. فكنت أقطف لها الأزهار، وأطعم معها البجع، وأترنم لها أحياناً بأغنية مما صرت أحفظه من أغاني بدور، دون أن أذكر اسمها أو أعادو السؤال عنها. صرت أقضى وقتاً طويلاً مع نرجس القلوب، استمع إلى أحاديثها عن الطفل القادم، والبرامج التي أعدتها لتربيتها وتعليمها، وأرنو إلى وجهها وهي ترسم بالابرة نقوشاً فوق وشاح تتسجه له، فأراه طافحاً بالسعادة. أقبل على محبتها، واجتهد في التسريبة عنها، وأترقب بشوق مثل شوقها، الحدث السعيد الذي صار موعده يدنو يوماً فيوماً.

كان جلال الدين قد تفرغ تفرغاً كاملاً لمشروعه مع الحرفيين. يأتي على عجل إلى القصر ثم يذهب مسرعاً، معتذراً عن المشاركة في المراسم التي تقام بالديوان، فائلاً بأن العمل بلغ مرحلة متقدمة تحتاج إلى كل وقته. كان يمتنع عن ذكر التفاصيل مكتفياً بالحديث العام، والتأكيد على أن هناك نتائج باهرة سوف يصل إليها الحرفيون. وكنت أراه يتكلم بيقين عن نجاح مشروعه، ويتابط مخطوطاً مترجمأً عن الصينية يضفي أهمية على الأسرار التي يحتويها، فائساع عن النتائج العلمية المبهرة التي يمكن أن يصل إليها بمشغله

وحرفيه ومخطوطاته، وهو على كل هذا بعد من عصر التقنية وثورة العلم. وأحاول أن أبحث في ذاكرتى عن اختراع خطير، تحقق في هذا التاريخ، فلا أهتدى إلى شيء. لعله سيكتشف آلة لقياس الوقت أكثر تقدماً مما توصل إليه علماء بغداد، أو يدخل عنصراً جديداً في صناعة القوارب، أو يقوم بتحسين أدوات النسيج، أو أى شيء آخر ينتمي إلى هذا الزمان، وتحكمه شروط الإنتاج العلمي في هذه البيئة. وكان جلال الدين يراني فاتر الحماس، لا أبدى اهتماماً كبيراً بما يقول، فينظر نحوه بعينيه الصغيرتين الماكرتين متحدياً، ويمضي معلقاً على وجهه ابتسامة غامضة. لم يكن يهمنى أن يصل الشيخ إلى تحقيق ما يريد أو لا يصل. كل ما كان يهمنى هو أن تبقى هذه المدينة الثانية عن ذلك العصر، بعيدة عن أمراضه أيضاً، نظيفة من تقنية العنف، قرية من منابع الحكمة والبراءة، كما أراد لها صانعها عندما أسقطها في جيب كونى مسحور لا يمر به زمن الصخب والرعب.

لم تمض سوى بضعة أسابيع على هذا الانشغال الدائم بالمشروع، حتى جاء جلال الدين يوقظنى عند الفجر من نومى، ويخرجنى على عجل من القصر، ويقودنى عبر بوابة

الصحراء إلى ذلك الخلاء، الذي ستقام فيه التجربة الأولى.

جاء مستبشرًا، باسمًا، بطفح وجهه بسعادة من اهتدى إلى جزيرة الكنز. فائلاً بلهجة يلونها الحماس والانفعال بأن المعجزة التي كان يحلم بها، ودعى الله أن يطيل عمره حتى يراها، قد تحققت الآن، وبأسرع مما كان يتصور. كان واضحًا مما بدا في عينيه من تعب وارهاق، أنه لم يتم طوال الليل. كنت أريده أن يدعني أكمل نومي. لكنه أرغمني على النهوض، بحجة أنه يريد إجراء تجربة أولى يتأكد بها من نجاح الاختراع قبل أن يستيقظ الناس ويتوافدون على المكان.

وفي الطريق إلى مشاهدة هذا العرض الأولى، أخبرني بأنهم أفلحوا في صنع سلاح جديد لم تعهد له الدنيا مثيلاً. فذيفة يقول المهنيون بأن لها قوة تدميرية هائلة، وسوف تتجذر مثل انفجار الصواعق وتصيب الهدف على بعد عشرة فراسخ. لم أصدق ما كان يقوله بانبهار وإكبار. منعت نفسي من أن أبدى فزعاً أو غضباً. منعت نفسي من أن أصرخ فائلاً لماذا الصواعق وقدائف النار ولماذا لا يكون الاختراع أداة بناء بدلاً من آلات الدمار والتخريب. بقيت صامتاً متحصناً بيقيني أن اختراعاً كهذا لم يكن ممكناً أن يتحقق قبل تاريخه برغم

ما مضى ي قوله عن التجارب الأولية التي أثبتت نجاحه والتي كانوا يجرونها أيام العواصف الرعدية لكي لا يفزع دويها أهل المدينة. ذهب أتبعه وهو يسرع الخطى حتى وصلنا إلى المكان الذي تجمع فيه العمال. كان الوقت قبيل شروق الشمس بقليل، وكان الحرفيون يصنعون دائرة حول اختراعهم، يفركون في فلق أيديهم، وينتظرون في برد الصباح مجيئنا. كان ما رأيتمهم يتخلقون حوله مدفعاً، بمثل ما وصفته للشيخ في أحاديثنا، له ما سورة طويلة وعجلات يسير فوقها، قاموا بطلائه بمادة فضية، وزينوه بالأصداف، ونثروا حوله أزهاراً ووروداً، جلباً للفال الحسن، واحتفالاً بهذه المناسبة التي ستكون تدشيناً لعصر الاختراعات العلمية المذهلة. كان المدفع قطعة فنية تستحق أن تأخذ مكانها في متحف الفن. وتصورت أن بناء هيكل مدفع بهذا الاتقان والبراعة، هو أقصى ما يمكن عمله في هذه المرحلة. ولكن العامل الذي تولى الشرح، أشار إلى صندوق الذخيرة الموضوع بجوار المدفع، قائلاً بأنهم استعانوا بكتاب صيني عن المواد المشتعلة التي يستخدمها الصينيون، واستطاعوا الاهداء إلى صنع القذيفة، كما توصلوا إلى إنجاز آلة الرماية

والتحكم في قوة الدفع وتحديد المسافة. كانوا قد وضعوا كومة كبيرة من الأحطاب في الخلاء لتكون هدفاً لنيرانهم، وعبيوا المدفع بالذخيرة استعداداً للطلاق. تراجعت مسافة إلى الوراء تحسباً لأى طارئ يجعل هذه القذيفة تتفجر داخل مدفعتها. أطلقواها فأحدثت دوياً هائلاً عند ارتطامها بالهدف. تعلالت الأدخنة وألسنة اللهب وتعالت صيحات الفرح والابتهاج. هرولوا إلى مكان الانفجار يعاينون الهدف الذي أصابته القذيفة وما نتج عنها من دمار. ثم جاءوا لاهثين يهئوننى باعتبارى صاحب الفضل في إرشادهم إلى هذا الاختراع، ويعانقون بعضهم بعضاً. كان ما رأيته أقوى من أن تستوعبه مداركى في لحظة واحدة. بقيت ذاهلاً، أردد بصري بين المدفع وبين النار وسحائب الدخان. ما الذى أستطيع أن أقوله أو أفعله الآن؟. هل أقول لهم أن يوقفوا الاشتقالات، لأن اختراعهم ليس إلا بداية الحريق الذى سيأكل مدينتهم؟ هذه المدينة التى جئت إليها هارباً من قعقة الحديد، ودوى الانفجارات، ورائحة البارود، في عصر ملئات، مجنون بتفجيرات الحرب وتجارة الموت. ما فائدة ذلك الآن، وما جدوى أن أكون نادماً على ما أفضي به للشيخ من

أخبار ذلك الزمان. من أين لى أن أعرف أن كلمات الهجاء
التي قلتها ساخطاً، متذمراً من أحوال ذلك العصر، سوف
تشعل فضوله، وتنثير انبهاره، وتدفعه إلى تقليد ومحاكاة ما
سمع، حتى يصل إلى اختراع مدفع قبل ميقات اختراعه
بمئات الأعوام. إننى ضحية كتب التاريخ، بمثل ما أنا ضحية
هذا الفضول الناتج عن رغبة الإنسان في تدمير الذات. انتهى
الزمن الجميل، لأن هذا المدفع سوف يفرض منذ الآن منطقه
الخاص. وله لغة سوف يجبرهم على الحديث بها. وهو يريد
منذ اليوم حاكماً يتحكم في قوته، ويشرف على استخدامه،
ويأمر متى تطلق قذائفه أو لا تطلق، ومن يملك هذه القوة،
سوف تكون له اليد العليا التي تفرض على الآخرين سلطتها
وسلطتها. انتهى التكافؤ الذى يضمن العدل ويبتigh لجميع
الناس حياة متساوية. فليشرعوا بقذائف النار تتفجر تحت
حجورهم. أفاق أهل المدينة على صوت الانفجار، وانشرت
بينهم أخبار الاختراع الجديد، فتدفقوa عبر بوابة الصحراء
يصنعون حشداً هائلاً، ويطالبون بإجراء تجربة جديدة تتيح
لهم مشاهدة المعجزة. راقبوا انفجار قذيفة أخرى في
الصحراء، وغمرتهم هستيريا الفرح الجنونى. انتهى عصر

السيوف والرماح والفرسان الذين يتصدون للمعارك بصدورهم، وأشرق على الدنيا عصر جديد، هو عصر المدفع الذي يصنع البراكين والصواعق. عادوا يملئون الشوارع رقصًا وغناء وعزفًا على الطبول والمزامير. تركوا أعمالهم وتفرغوا للالتحاق. أيقظ هذا الالتحاق جذوة الحماس الوطني، فصاروا ينشدون الأغانى التي تنقل ذكريات المعارك القديمة، يضربون الطبول وينفخون الأبواق التي تصدر نفير الحرب. أخذت جلال الدين جانبًا، أسأله عن فائدة اختراع شيطانى كهذا، جاء يوقد غريبة الاقتتال التى ظلت نائمة لمائتى السنين، وقد كان بإمكانه أن يسعى لإنتاج شيء نافع مثل آلة لكسر الحجارة، أو طحن الحبوب، أو صنع الأحذية، أو حراثة الأرض. تحدث الشيخ بمنطق حاكم من أسياد القرن العشرين، وأرباب صناعة الموت، قائلاً بأنها قضية أولويات، يأتى على رأسها أمن المدينة وحماليتها من الأعداء.

كنا قد وصلنا إلى القصر، حيث سيقام حفل على شرف أصحاب المشروع. جاء موعد الحفل وجاءت دنان الخمر وألات الطرب وانتشرت في القاعة الكبيرة حلقات الرقص

والغناء ابتهاجاً بهذا العيد. انتحيت جانباً أشرب كأسى صامتاً
وأستمع إلى نقاش يدور حول أفضل الأساليب لاستخدام هذا
السلاح. بدا واضحاً أن الاختراع قد أشعل خيال هؤلاء
الناس، وملأ رؤوسهم بالأحلام الدموية. سمعتهم يقولون بأنه
صار بإمكانهم اليوم غزو أكبر ممالك الدنيا، وإقامة حكم
أوسع مما سعى لإقامتها الإسكندر المقدوني، سيقضون إذا
أرادوا على الروم والسلاجقة والبيزنطيين وسيسيطون نفوذ
دولتهم على الشرق والغرب. وكان الإسکافي أكثرهم ابتهاجاً
بهذا الاختراع فائلاً من يتحدثون عن الفتوحات بأن ذلك ليس
ما تسعى إليه عقد المرجان، فهى مدينة أمن وسلام، وستنام
نوماً أكثر هناء وسعادة في ظل هذا المدفع الذى يحرسها.
منعت نفسي من الكلام فلم أفل له أن هناء المدينة تبخر في
الهواء مع أعمدة الدخان الصادر من قذيفته النارية. كانت
نرجس القلوب في آخر أيام حملها، جاعت ترتدى ثوباً ورديةً
فضفاضاً لم يستطع أن يخفى استداره بطنها، سألتني لماذا
أبدو صامتاً وكان هذا الاختراع الذى أسعد الناس لا يسعدنى.
أردت أن آخذها إلى حضنى أبشرها بالدمار القادم وأبكي،
ولكنى رأيت الإسکافي واقفاً بجوارنا، فكظمت غيظى فائلاً

بأننى لا أستطيع أن أتصور نفسى قائداً عظيماً، يضع فوق رأسه قرنى ثور، ويغزو الأمسار بقذائف النار. وشارك الإسکافي في الحديث معرباً عن يقينه بأنه خير للإنسان أن يكون قادراً على الغزو، من أن يكون مهدداً بالغزو من الآخرين. وأبدى إعجابه بمهارة الحرفين الذين تحولوا من بناء القوارب، وصناعة القناطر، وصهر الحديد الذى تصنع منه القبور والصهاريج، إلى عمل جليل مثل صناعة القذائف، حيث سيتمكنون من تحضير ألف فديفة في عام واحد. وسيواصلون جهودهم العلمية لاكتشاف أسلحة أكثر تفوقاً وفعالية. فلت في خاطرى لعلهم سيفلقون الذرة ويستخدمونها في تدمير العالم منذ الآن، فيريحون البشرية من عنااء الأزمات القادمة. كنت قد شربت نبيذاً كثيراً وخشيت أن يدفعنى الشراب إلى ارتكاب حماقة تقسى عليهم هذا الحفل. ضاق صدرى بما سمعت ورأيت فتركت القاعة متسللاً إلى حدائق القصر. كان الوقت ضحى، ومناخ الربيع يعقب بشذا الجنائن. ملأت صدرى بالهواء النظيف، ورفعت رأسي إلى السماء الكبيرة الخلية من السحب، استمد من صفائها عوناً على تسكين هذه الاضطرابات، ومشيت متوجلاً بين الأشجار

وجادول الماء. كان كل الذين يشتغلون بحدائق القصر قد تركوا أعمالهم وذهبوا يشاركون في الحفل. أدهشنى أن العصافير سكتت جميعها عن الغناء. فتشت عنها فلم أرها، كانت الحديقة خالية من طيورها التي كانت ترفرف وتصدح طوال النهار. أدركت أن الانفجار الهائل أفزعها فذهبت تبحث عن الأمان في مكان غير هذا المكان. كنت أرافق طاووساً يجر ذيله في كبرياء وأفك في التحولات التي سوف تطرأ على هذه المدينة بعد الآن، عندما صاحت الحديقة فجأة بالغناء. جاء غناء بدور ينسلنى من أفكارى و يجعلنى أقف مبهوراً أنصت إليه. لم يكن الغناء هذه المرة يأتي واهناً ضعيفاً قادماً من السماء كما كنت أسمعه في الأيام الماضيات. لم يكن هائقاً ينبع من القلب، أو يسقط من سقف الكون. كان الغناء هذه المرة يأتي واضحاً قريباً، كأنها تغنى خلف إحدى هذه الأشجار. وكانت تعيد أغنية ياقوت الشاعر عن الاعصار الأصفر الذى خرج من شقوق الجبال يدمر المدينة ويبيد أهلها. بدا غريباً هذا التباين بين ما تثيره الأغنية من مشاعر الحزن والأسى، وبين هذا الجو الاحتقانى الذى يغمر المدينة. لعل بدور أيضاً تذكر هذا الاختراع كما أنكرته، وتراءاه يشبه

بواحد اعصار يهلك المدينة، أو لعل أفكارى هى التى تجسست
في شكل أغنية حزينة، ولكن الغناء هذه المرة لا يتبعنى أينما
ذهبت وكأنه صادر عنى، إنه الآن يبتعد بقدر ما ابتعد عنه،
ويقترب عندما أدنو منه. تهياً لى أن الغناء يأتى من إحدى
النوافذ أو الشرفات القريبة. دخلت القصر، وسرت عبر
رواق طویل أتبع مصدر الصوت، حتى وجدت نفسى أقف
مباشرة أمام الغرفة التى يأتى منها الغناء. كانت هى ذاتها
الغرفة المغلقة على أسرارها والمتقلة بالأقفال وأسياخ الحديد.
حبست أنفاسى أنصت إلى الغناء، كيف تراها استطاعت
اقتحام هذه الغرفة التى يعطيها غبار السنين. كان صوت
بدور ينسكب من خلال الباب واضحاً جلياً لا لبس فيه.
الصقت أذنی بالباب زيادة في التأكيد. أكاد الآن أسمع حركة
الريشة التي تستخدمها في العزف وهي تتنقل من وتر إلى
وتر، واستنشق عطرها الذى تستحضره من رحىق الياسمين.
بدأت أطرق الباب وأناديهما. واصلت بدور الغناء دون
انقطاع. لا بد أنها عرفت على وجه اليقين أن النبع الذى
يمنح الإنسان شباباً دائماً هو ما يقفلون عليه هذه الغرفة،
فجاءت تستحم بماء النبع وتجلس عارية على ضفافه، تعزف

وتعنى. عاد الشوق إلى رؤيتها يحرق صدرى. ركضت مسرعاً إلى الحديقة حيث ترك العمال معاولهم ومناجلهم وفؤوسهم، وعدت بفأس كبير أستطيع أن أحطم به الأفالم. توقفت لحظة أتأمل الطلاسم المنقوشة على الباب، وأنصت إلى الغناء، وأفكر في نتائج هذه المغامرة. لقد ظل أصحاب القصر جيلاً وراء جيل يحترمون الحكمة التي أمرت ببقاء هذا الباب مقلاً، ولكن كيف استطاعت بدور النفاذ إلى داخل هذا المكان. لعل للغرفة نافذة أو كوة صغيرة استطاعت فتحها والتسلل من خلالها. وراكضاً صرت أطوف بالأروقة المجاورة فلم أجد إلا الشبابيك التي تطل على الحديقة. وراكضاً ذهبت خارج القصر أتفحص الجدار الخلفي للغرفة فلم أجد جداراً، كان القصر في هذا المكان يتصل مباشرة بالهضبة التي احتوت الجدار حتى صار جزءاً منها. لعلها اكتشفت نفقاً سرياً أو استعانت بالقوى الخارقة للطبيعة على الدخول، ولا سبيل إلى الوصول إليها، إلا باقتحام الغرفة وتحطيم أفالها. وراكضاً رجعت إلى باب الغرفة وبدأت أهوى بالفأس على أفاله وأسياخه حتى تفككت، وفقت لاهث الأنفاس انقض ارتعاشاً ورعباً قبل أن أرفع الأسياخ وأدفع

الباب، فتحت الغرفة فلم أجد أحداً، ولم أر في البداية سوى العتمة. هاجمتى رائحة رطوبة قديمة يحتويها المكان، اختلطت برائحة العطر الذى تستخدمه بدور، في حين صار الغناء يتدفق أكثر حدة ولوعدة، وأكثر غواية وسحراً. كان الضوء الذى تسلل عبر الباب المفتوح كافياً لأن أرى أن ما ظننته ظلاماً لم يكن إلا جانباً من الهضبة. صخور بركانية سوداء تحيط بها الجدران. ورأيت وسط الصخر باباً دائرياً، معدنياً، يعطى ما بدا لي أنه حفرة في الجبل. أدركت أن الغرفة لم تكن إلا بناءً يحجب الكهف. كانت الكتابة فوق باب الكهف تحمل تحذيراً مكتوباً بطلاء فضى، بدت حروفه واضحة رغم عتمة المكان، يطالب الأحمق الذى فتح الباب، أن يستقى من هذه الفرصة الثانية، ويعود من حيث أتى. ولكن الغناء الجميل الذى تدفق مجلجاً، مغلفاً بالصدى، كان قد استولى على كل مشاعرى فلم أعبأ بالتحذير. كانت أطرافي ترتعش، والعرق يتقصد غزيراً من جبينى، ورجع الصدى يملأ رأسي بالضجيج، وبدور التى تناقضتى لم يعد يحجبها عنى إلا هذا الباب الصغير، الذى لا يحمل اففلاً ولا أسياخاً. استعملت الفأس في إزاحة دائرة من الجبس

والحجارة تحيط بالباب، ثم أمسكت بإحدى نتوءاته واستعنت بكل قوتي على فتحه. بدأ الباب يتحرك حركة بطيئة ويصدر صريراً موحشاً، عالياً، كأنه الصراخ. احتفي الغناء تحت صخب هدير هائل ارتفع من عمق الكهف، وبدأ الهواء الأصفر الذي كان محتجاً خلف الباب ينسلي عبر الانفراجة الضئيلة. كان هواء ساخناً، فاسدًأ، كريه الرائحة، يلحف وجهي ويصيه بالانهاب. أدركت هول ما حدث، فصرت أدفع الباب لكي يعود مقللاً كما كان. ولكن الهواء الذي تحرك مثل بركان يستيقظ من نومه، ضرب بدفعاته القوية باب الكهف وقذف بي فوق الأرض. نهضت أعدو، يملأني الرعب ويتقاذفني الهواء. كانت الرياح الصفراء قد سبقتني تعصف بالقصر. تضرب النوافذ والأبواب، وتمزق الستائر. رأيت الناس يخرجون في فزع من قاعة الاحتفال. يتصايدون ويرتطمون ببعضهم بعضاً، يبحثون عن المدارج التي تقود إلى مخزن المؤونة تحت الأرض للاحتماء بها من عنة الاعصار. لم أكن أدرى ماذا أفعل. وجدت نفسي أصرخ منادياً نرجس القلوب عليها تعرف طريقة لإغلاق الكهف. سمعتها من خلال الصياح والضجيج وعصف الرياح ترد

على ندائى. قاومت اتجاه الريح حتى وصلت إليها. عانقتها ونحن ملتصقين بالجدار فائلاً لها بأننى أنا الذى فعلت ذلك، حطمته بباب الغرفة السرية، وأيقظت الجحيم النائم في الكهف. أتشبث بها وأصرخ بشكل هستيرى:
- أنا الذى فعلت ذلك.

وهي تصيح من خلال عصف الرياح:
- لماذا؟ لماذا؟

أمسكت بيدي تسحبنى وراءها وهى تهبط الأنفاق. لم أشأ أن أذهب معها. كنت أشعر بكرابهية لنفسى، ورغبة فى الهروب من أمام هذه المرأة. تركت يدها، وأسلمت نفسى إلى دفعات الريح تسوقنى خارج القصر. لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟
لماذا؟ نرجس القلوب تقولها. الجنين الذى اكتمل نموه في بطنها يقولها. الأبواب والنوافذ التى تتحطم وهى تضرب الجدران تقولها. لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟. الطيور التى خرجت من مخابئها وصارت تتتساقط ميتة فوق الأرض تقولها. أذهب متربناً صوب البوابة التى تقضى إلى الصحراء، منها جئت وإليها أعود مرة أخرى. تقاذفنى الريح ويملأنى احساس بالعار والغثيان والندم والخوف من الهلاك. ها قد تحققت

الكارثة وضاعت مدينة عقد المرجان. الناس يهربون عبر الشوارع يتصلبون ويحتمون بالأعمدة والأقواس والجدران. بدأت الأشجار تفقد مقاومتها وتسلم أزهارها وأوراقها وثمارها لأمواج العاصفة تتقاذفها. وجدت نفسي أعبر البوابة وأعدو وسط الصحراء. لم أقو على الالتفاف لإلقاء نظرة أخيرة على المدينة التي يفتاك بها الاعصار. أركض، وأركض، وأركض. لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟. مدينة اكتملت زينتها وفاض كأس بها، فكان لابد أن تحرق وتموت. تختفي من فوق وجه الأرض بأهلها وأعيادها وأشجارها، بأغانيها وفراشاتها وطيورها وسوانقيها. إنه ذلك الحال. ذلك العطب الأصيل الذي ظل على مدى التاريخ يشعل الحريق ويصنع الحروب ويبيد المدن والبشر. كنت أعرف أن ذلك سوف يحدث. أعرف أنه إرث أتقاسمه مع الناس جمِيعاً، واحمل حصتها معى. قوة غشيمه، بدائيه، عمياء، هي التي أفرخت جرائم القتل، وحفرت أودية الموت والهلاك، واحتزرت المشانق والسجون وغرف التعذيب الوحشى. قوة تتم في تلaffيف الأدمغة، وما أن ترى إنجازاً بشرياً حرق اكتماله وجماله ونضجه، حتى تتحرك بكل قبحها ودمامتها،

تفسد الحياة وتلطفها بالدم والصراخ، تستيقظ كالأفعى التي اتخذت لها مكاناً سرياً تتم في بين ألياف وأغشية المخ، وتحرك لتزرع الموت الأسود في الأنسجة والشرايين. عطب أصيل، كنت أدرك دائماً وجوده، وأخاف غدره وخديعه. ولذا معنا، ونمى بمنونا، وزرع جرثومته التي تتغل في دمائنا جميراً، بما في ذلك أهل هذه المدينة الذين حققوا سلوكاً يليق بالأنبياء، وما أن رأوا قذيفة تنفجر ناراً ودخاناً وموتاً، حتى نسوا أعراس القلب وخرجوا يتادون لقتال وينفحون أبواق الحرب. أدرك الآن وأنا أواجه هلاكي، أتنى لم أكن ضحية تلك الغرفة السرية المدفونة في الجبل، وإنما ضحية غرفة سرية أخرى مدفونة في كهوف الذات، تمتلئ بهواء أصفر ظل ملوثاً منذ أن قتل قabil أخاه هابيل. غرفة مهما وضعنا فوقها الأفقال وأسياخ الحديد، وتنظايرنا بأنه لم يعد لها وجود، وسمحنا للحياة بأن تمضي في مسارها، فلابد أن تكشف ذات يوم عن نفسها، وتغمر الدنيا بهوائها الملعون.

لم أعد أقوى على الركض، ولم أعد أستطيع أن أرى شيئاً بعد أن تورمت عيناي، فصرت أتحسس الهواء كالعميان. كنت قد تقيأت كثيراً وبدأت أشعر بالاختناق.

سأموت بعد أن منحتني مدينة عقد المرجان أزهى لحظات العمر، فكافأتها بأن أطلقت عليها الجحيم الأصفر النائم في سراديب الجبل وسراديب الذهن. لأمر ما أردت أن أحطم الزمن الأسطوري، وأدمر المدينة التي كانت أكثر بهاءً مما تطيقه مشاعر إنسان منذور للغناء. لم تكن بدور تعنى إلا في ذهني. ولم أكن منساقاً لكسر الباب إلا بإرادتي وإرادة العط卜 الناغل في دمي. أنا الذي قتلت هذه المدينة وقتلت نفسي. اكتشفت أنني لا أجد هواء أتنفسه. أدركت أنني هالك لا محالة. مزقت الرداء عن صدرى، وأجهدت نفسي في التقاط الهواء دون جدوى. ارتميت فوق الأرض أمزق جلدى، وأحابل أن أفتح ثقباً في صدرى يتسلل منه الهواء. امتلأ صدرى بالدم والجروح، وتهالكت فوق الرمل والحصى ألفظ آخر أنفاسى.

عندما أفقت بعد ذلك، كنت مندهشاً لأنني لا زلت حياً. فقد كنت على يقين بأنني عانيت سكرات الموت اختفاها. لا أدرى كم مضى من الوقت منذ أن استيقظت من هذا الاغماء الذى حسبته موتاً، أو هذا الموت الذى وجد في اللحظات الأخيرة انقاذاً. لا شك أن وقتاً طويلاً قد مضى. فقد توقف

الاعصار، وتراجع النهار. زلزلتى حالة الفزع وعاد لى بصرى، ولكن الظلام جاء يحجب الرؤية، إلا من ضوء شمعة خافت ينوس فوق صخرة كبيرة. تباهت إلى أن الأرض التى أرتمى فوقها لم تكن رملًا وحصى، وإنما أرضاً صلبة صخرية باردة. وما أن ألغت عيناي عنمة المكان، حتى أدركت أتنى أرتمى بين أربعة جدران، وأن الغرفة تشبه غرفة الشيخ الصادق الذى أوفى مني منذ عام مضى في هذه الرحلة. استويت جالساً وفتشت عنه بنظراتي فلم أجده. الغرفة غرفته، وموقد النار المصنوع من الفخار موقده، إلا أن جمراته مطفأة. وكانت الغرفة خاوية، لا تحتوى عدا الموقد والشمعة إلا على هذا الضريح الذى حسبته حجراً. لابد أن الرجل توفي أثناء غيبتي، فبنوا له هذا القبر. وصاروا يوقدون له الشموع توسلًا لبركاته. اكتشفت أتنى الآن أرتدى ذات الملابس، وأضع في معصمي ذات الساعة التي رميت بها في الصحراء، فكيف تراني عثرت عليها في ذلك الخلاء. وعدت لارتدائهما دون أن أدرى. بدا لي الأمر غريباً، ولكن الجراح ما تزال في صدرى، وخيوط الدم ما زالت طازجة تسيل على بدنى، وتلوث قميصى. آثار

الالهابات في عيني، والهواء الأصفر لاذعاً، مرّاً، استشعره على طرف لسانى. وبقiable تغطى شعرى وأهدابى. تباهت وأنا غارق في حيرتى أتنى أحسست منذ لحظات، وقبل عودتى إلى تمام وعيى، أن أحداً كان يلبسنى ملابسى، وأن أعون الشيخ عندما رأونى أعود عارياً، ساعدونى على ارتدائها. كنت حائراً مهوماً، ولا أعرف تفسيراً لكل هذا الذى حدث معى، وكيف عدت حياً بعد موتى، وكيف تركت الاعصار الذى أهلك المدينة، ونجوت وحدى، لاستأنف حياتى في المدينة التى أنسأتى، وأجد في غرفة الشيخ من ينتظرنى بملابسى ويضعها فوق جسمى. وفدت مستنداً إلى الجدار، وخرجت متزحجاً إلى سقية البيت. نفضت الغبار الأصفر الذى كان يغطى وجهى ورأسى، وعبرت العتبة إلى الزفاف وقد أحكم الظلام حلقاته. مشيت أجر الخطى، وأتکى على الجدران، عبر أزقة مظلمة، خالية من الناس والحياة. حتى وصلت إلى شوارع مأهولة، عامرة بالضجيج، تضيئها مصابيح كهربائية أعشت بصرى الذى ألف أضواء القناديل والفوانيس. دخلت ميداناً يزدحم بالحافلات وسيارات الأجرة وعربات الخضار، هاجمتى رائحة زنخة، هي رائحة

القطران مختلطًا بأدخنة عوادم السيارات، ورأيت ساعة مضيئة معلقة بإحدى البنيات تشير إلى الساعة الثامنة. مشيت متلفتاً شملاً ويميناً خشية أن تدهسني إحدى الحافلات الكثيرة التي تتحرك وكأنها جعارين فولاذية كبيرة حمراء تماماً في الميدان. وما أن رأيت سيارة أجرة فارغة حتى أوقفتها، وقفزت بجوار سائقها، الذي يضرب مزماره، يضيف ضجيجاً إلى الضجيج، ويخترق بنا الزحام والدخان ورائحة المازوت والقطران. ها قد عدت إلى مدينة العصر التي ما كنت أحسب أنني سأعود إليها، وما ندمت لحظة على فراقها، أو شعرت يوماً بأنني أنتمى إليها. وذاهلاً صرت أنظر إلى واجهات المتاجر والعمائر، وأتأمل معالم الطريق الذي يقود إلى بيتي، محاولاً أن أكتشف التغيير الذي طرأ على المدينة، مستحضرأ صورتها قبل سفرى، فأحس بأن تلك الصورة بعيدة، باهنة في ذاكرتى، وكأنني غبت عنها عمراً كاملاً لا مجرد عام واحد. كان رأسي يزدحم بشتى الأفكار والانفعالات، وكانت حزيناً للمصير الذي تعرضت له عقد المرجان بسبب حماقى وجھى، وحزيناً أيضاً لوفاة الشيخ الصادق أثناء غيبتي، شديد الأسف والأسى لأنني لن أجد

أحداً غيره يفسر لى ما غمض من أسرار رحلتى. ترى ما الذى سيقوله أهلى وزملائى عندما يروننى. لابد أنهم فدوا الأمل فى عودتى، واعتبرونى ميتاً بعد غياب عام كامل. ترى ما الذى حدث لفاطمة، وهل ما زالت تنتظرنى أم أنها أعادت ترتيب حياتها بما يلائم زوجة فقدت زوجها، لن ألومنها إذا فعلت ذلك، ولن ألوم أحداً من أهلى إذا تصرف فى بيته بالبيع أو الكراء. وصلت إلى باب الشقة وأردت معالجته بالمفتاح الذى وجدته ملتصقاً بجip السترة، ولكننى آثرت أن أطرق الباب تحسباً لأى ساكن جديد. سمعت حركة تصدر من داخل البيت، فزرت ستة وطوقت بها صدرى، لكي لا يرى الساكن الجديد آثار الدم والجروح. فتح الباب، ولم تكن سوى فاطمة التى فتحته. أفرحنى وجودها، ووقفت متباطئاً في الدخول أنتظر وقع المفاجأة عليها، ولكنها سألتني أن أدخل بسرعة، لأنها تركت طنجرة تغلى فوق النار. دخلت في حين ذهبت هي راكضة إلى مطبخها، اندھشت لهذا الأسلوب الذى استقبلتني به، ولم أعرف كيف أعود عودة رجل من موته، فتلقانى بكل هذا البرود وعدم الاكتراث. كان الأثاث دخل بيه البيت ما زال في مكانه لم يطرأ عليه أى

غير، وقماش النايلون الذى يعطى طاولة الأكل هو ذات القماش الذى تتبه الحروق، ولا أدرى ما الذى أثارنى، وأرسل موجة عاتية من الكآبة تغمر صدرى، فارتミت فوق الكرسى، وانكفت فوق طاولة الأكل أبكى وأبكى. بحرقة ومرارة صرت أبكى فراق تلك المدينة التى أهلكها الاعصار. أذكر ما كافأتها بها وأبكى، أذكر نرجس القلوب وابتسامة عينيها والجنبين الذى تحيك له دثاراً للشتاء. أذكر البشر الذين أكرموا وفادتى، وأسرفوا في محبتهم لى، أسكنونى أجمل قصور الدنيا وجعلونى أميراً لأبهى مدينة، فخذلتهم وأرسلت ريح الكهوف وشياطين الروح تقضى عليهم، ثم تسللت هارباً إلى الصحراء، عائداً إلى هذا البيت، وهذه المدينة، وهذه المرأة. سمعت فاطمة بكائى، فجاءت تسألنى عن السبب الذى يبكى. رأت خيوط الدم التى تخضب قميصى، والخدوش التى تملأ صدرى، فأبدت ازعاجاً مما رأت، وركضت إلى صندوق الدواء بحث عن مادة تطهر بها الجروح. سمعتها تسألنى إن كنت قد اشتبكت في عراك مع أحد، وتمد يداً تحمل قطناً لمعالجتى. أهملت سوالها، وتناسيت للحظات برود استقبالها، وسألتها عندما انتهت من مداواتى، إن كان غيابي

كل هذه المدة قد أفلقهم. لم أتلق رداً سوى نظرة حائرة لم أعرف لها تقسيراً. سألهما مرة أخرى عما حدث لها ولأفراد عائلتي أثناء غيابي، وعما فعلوه عندما اخفيت فجأة دون أن أترك خبراً أو أثراً، وما إذا كان الشيخ الصادق أبو الخيرات قد أبلغهم قبل وفاته بما حدث لي. رأيتها تنظر باندهاش واستغراب، وكأنها ارتكبت فعلاً فاحشاً يجعلها ترثب ولا تقوى على الكلام. لعل شيئاً خطيراً حدث أثناء غيابي. لعلها اعتبرتني ميتاً، وانتزعت حكماً بانتهاء زواجها مني، واتخذت لنفسها زوجاً غيري، أسكنته في بيتي، وما غلن رأتي حتى اختلفت عذراً كى تهرب من مواجهتي. لم أستطع أن أكتم غضبي أكثر من ذلك.

أمسكت بها من كتفيها، أهزها قائلاً:

- هل أختفي كل هذه المدة وأعود فلا أجد إلا هذا البرود والارتباك. أخبريني بسرعة ماذا حدث.
أشاحت بوجهها باكية، في حين واصلت الإمساك بها،
وأنا أتميز غيطاً.

- تكلمي وقولي ما الذى تريدين إخفاوه بهذا البكاء.

- أبكي لأننى أراك تعود مريضاً مرة أخرى.

- إنكم أنتم سبب مرضى وجنونى، وما إن تركتكم
حتى وجدت أناساً عشت معهم عاماً كاملاً لا أعرف إلا بهجة
القلب والروح.

- ولكنك لم تغادر البيت إلا منذ ساعة واحدة فقط.
ومصعوقاً صرت أنظر إليها، لأن ما قالته شيء لا
يمكن أن يصدقه العقل. وقعت منها رأ فوق الكرسى وأنا
مازلت أحدق في المرأة التي قالت هذه الجملة الغربية. هل
كان هذا الغياب ساعة فقط. إن هذه المدة لا تكفي لأكثر من
الذهاب إلى المدينة القديمة والعودة منها، فهل كل ما حدث
لـى حدث في تلك الدقيقة الفائضة التي تفصل بين رحلتى
الذهاب والعودة. هل يمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟ هذه
المدينة التي أهدتى جواهر قلبها، وسقطتى من رحىق أعنابها
وزهورها، وزوجتى أميرتها، وعقدت أواصر الحب بينى
وبيـنـ شـعـرـاـنـهاـ وـحـكـمـاـنـهاـ وـمـزـارـعـاـنـهاـ وـصـيـادـاـنـهاـ وـمـلـاحـىـاـنـهاـ
مراـكـبـاـنـهاـ، وـنـسـجـتـ لـىـ حـكـاـيـةـ عـشـقـ مـعـ أـجـمـلـ مـعـنـيـاتـهاـ. هـلـ
كـانـ ذـلـكـ كـلـهـ مـجـرـدـ وـهـمـ. هـذـاـ عـالـمـ الـذـىـ اـسـتـمـنـعـتـ بـأـعـيـادـ،ـ
وـتـسـلـقـتـ جـبـالـهـ،ـ وـاغـتـسـلـتـ بـمـيـاهـ يـنـابـيعـهـ،ـ وـذـهـبـتـ لـلـصـيدـ فـيـ
غـابـاتـهـ،ـ وـغـرـسـتـ الأـشـجـارـ فـيـ بـسـاتـينـهـ،ـ وـشـارـكـتـ عـامـاًـ كـامـلاًـ

في مهرجاناته اليومية، ورأيت فيه تقلب الفصول، ربيعاً وصيفاً وخريفاً وشتاءً وربيعأً مرة أخرى، وتعلمت فيه ركوب الخيل وفنون الرماية والصيد، واستواعت عدداً من أساطيره وحكاياته، وحفظت عن ظهر قلب بعض أشعاره، وعدت بحصيلة من أغانيه وألحانه، هل كان حلماً لم يستغرق سوى دقيقة واحدة؟ أليس ذلك هو المستحيل بعينه؟ هل أصرخ في وجه هذه المرأة قائلاً بأن كلامها ليس سوى هلوسة وتخريف. هل أسرد لها الآن الأشعار التي أحفظها، وكلمات الأغانى التي وعتها الذاكرة، وأخبرها بما سمعت ورأيت وعايشت من تجارب وأحداث يقتضى الحديث عنها أيامأً بعد الأيام التي عشتها هناك، لأن لكل لحظة عمقها وثراءها وتميزها عن اللحظات الأخرى.

كانت فاطمة ترتدي ثوباً منزلياً يفيض على جسمها، بدا لى أنه ذات الثوب الذى تركتها ترتديه قبل أن ترك البيت، وتطوى أكمامه إلى مرفقيها بذات الطريقة. وكان الجزء الأول من ألف ليلة وليلة مفتوحاً ومقلوباً فوق طاولة صغيرة بمدخل الصالون كما تركته منذ عام مضى. فهل دخل العالم في كبسولة اللازمن بحيث توقف الزمان عن سيرولته

وجريدة، ليسمح لى بالعبور إلى تلك المدينة الأسطورية، وينتظرنى سنة كاملة حتى أعود ليواصل مساره من جديد. ماذا إذن عن الشيخ الصادق الذى وجدته يستقبلنى فوق سجادته ذات الأهداب الذهبية، ويتاح لى هذه الرحلة ثم أعود فالقاء متوفياً، نائماً في ضريحه، هل كان هو أيضاً وهما وخداعاً للبصر؟ وهل كانت غرفته التى ذهبت إليها، وتصورت أنه مازال جالساً بها، محاطاً بأعشابه وكتبه وأخبرته وموقد ناره، لا تحتوى إلا قبراً تجسد لى في تلك اللحظة بشراً سوياً؟ ثم ماذا بشأن هذه الجروح وخيوط الدم التى تملأ صدرى، وآثار الالتهابات فى أجفانى، وطعم الهواء الأصفر على لسانى، وأكdasه التى كانت تغطىنى عندما أفقت. هل يمكن لحلم لم يدم إلا دقيقة واحدة أن يترك آثاراً كهذه؟ إن ما حدث معى أكثر غموضاً وتعقیداً من أن أستطيع تفسيره واستيعابه في لحظات قصيرة. كانت فاطمة قد تركتى وذهبت إلى غرفة الصالون تهافت أخرى، تستجد به كعادتها عندما يداهمنى المرض. جاء أخي منزعجاً، يسأل عن سبب هذه الانتكاسة الجديدة، بعد أن رأى اتعافي وأتحرر من مرضى. ما إن رأيته يدخل البيت حتى وقفت

أريد أن أعانقه، فقد أحسست فعلاً بأنه مضى أكثر من عام على فراقنا. ولكنني قاومت هذه الرغبة، لكي لا أضيف إلى الموقف المتوتر مزيداً من التوتر وسوء الفهم. طمأنته إلى أنني بخير وعافية، وأن الخدوش التي في صدرى لم تكن إلا بسبب الظلام الذى حجب عنى كوم حجارة زلت فوقه قدمى. وعندما سألنى عن المكان الذى ذهبت إليه هذا المساء قلت باقتضاب:

- ذهبت أزور الشيخ الصادق أبو الخيرات، جارنا القديم.

وبوجه احتفظت فيه الدماء، فزعاً ورهبة، قال:

- ولكن الشيخ الصادق مات منذ أكثر من عشرين عاماً.

قلت بسرعة:

- أقصد أننى ذهبت لزيارة ضريحه.

عاد إلى الوجه ارتياحه، لا حاجة بي لأن أخبره بشىء مما حدث، ولن أقول له سوى هذه العبارات الآمنة، التي تعينه هائلاً إلى بيته، بعد أن جاء منزعجاً مما نقلته إليه

فاطمة. لا داعي لإطالة عمر هذه اللحظات، فأنا أيضاً أحتاج إلى وقت لاستجلاء هذه التجربة الغريبة التي عشتها.

- ولكن ما هذا الذي تقوله فاطمة عن فقدان إدراكك للزمن.

- لا تشغله بالك بما تقوله فاطمة. إن هو إلا حلم رأيته أثناء زيارتي لضريح الشيخ.

- كان شيخاً عارفاً بالله، فما الذي رأيته في مقامه المبارك.

لم أقل شيئاً. نهضت واقفاً وسألته أن يعذرني لأنني أحس بالتعب وأرغب في النوم. تركته جالساً يشرب فهونه وذهبت لكي أتأمّل.

أبدلت ملابسي وتمددت فوق السرير. كنت في حالة من الانفعال والتوتر منعت عن النوم برغم الجسد الذي أنهكه الركض في الصحراء، والصراع مع رياح الموت. أعرف الآن يقيناً أنني كنت شاهداً على تجربة خارقة، لا يمكن أن تقايس بما أفناه من مقاييس، عن الزمان والمكان، والحركة والمسافة، والحلم واليقظة، والوهم والحقيقة. لتكن هذه الرحلة المبهرة، المثيرة، المباركة، حلماً أو رؤيا أولاً

تكون. لتكن سرّاً، أو إلهاً، أو معجزة جاءت بفضل صاحب
الضريح أو لا تكون. ليكن الزمن توقف خلالها، أو انطلق
هارباً من كل قيد، عائداً إلى الوراء ألف عام. ليكن ما عشته
عاماً تقلص حتى صار دقيقة، أو دقيقة احتوت فصول العام
الأربعة. كما تحتوى النواة المدفونة في الأرض نخلة الغد
المليئة بالراجين، أو قطرة العطر حقلًّا من الورود، أو قطرة
المطر موجة شربتها الشمس، أو لاتكون. فقد عرفت أثناء
هذه الرحلة أكثر أيام العمر عمقاً وامتداء وسطوعاً. إنني
أستطيع أن أذكر الآن بوضوح وجلاء كل ما رأيت وسمعت،
واستحضر كل تلك العلاقات العميقة، الحميمية، التي أنسأتها
مع أهل المدينة، وكل الوسائل التي ربطت بيني وبين ما
احتواه من أشجار وطيور ومياه وأحجار. لن أنسى نرجس
القلوب، الزهرة الملكية التي أمللتى بأريجها، وأضاعت
بسنانها الجميل سماء القلب، لن أنسى ما كانت تحمله لى كل
صباح من فرح فوق كفيها، وما استقر في الذاكرة من أشعار
المتصوفين التي كانت تداويني بها. لن أنسى بدور، عصفورة
العشق وقيثارة اللحن القادم من سقف الكون، لن أنسى ليلة
الحب التي عشتها معها فوق حشية قش سحرية، ولن أنسى

أغانيها الموشاة باللون الفجر التي غنتها بعد أن تحررت من
أطر الجسد واتحدت بموجات الضوء والهواء. لن أنسى
الإسکافي جلال الدين، وحكمته التي تعلمها من الطيور التي
تعرف منابع النور، أو الشاعر ياقوت، الذي يضبط حركته
مع حركة النجوم، وقصائده التي تخاطب كائنات العالم ذات
الوجود الأثيرى. إن كل ما قالوه سيبقى منقوشاً فوق صحف
القاب. وإذا كان اعصاراً مجنوناً قد دمر تلك المدينة، فإننى
سأختزنها في ذاكرتى مجلة ببهاء الضوء الفزحى، عابقة
بعبير أشجار الحب، كما كانت قبل الاعصار. سأظل وفياً
لذكرى تلك الأيام التي عشتها أميراً لمدينة عقد المرجان،
مدركاً أن ذلك كله لا يمكن أن يكون قد حدث في يوم، أو
أسبوع، أو شهر. لقد عشت ذلك العام وكأنه عمر كامل،
وعدت من تلك الرحلة مملوءاً بالدهشة والانبهار، لأننى
استطعت النفاذ إلى المطلق، وعبرت الزمن المحدود إلى
عوالم الزمن اللانهائي، مترع القلوب باحساس من ارتوى من
الينابيع التي تصنع الفرح الدائم، الذى لا يعرف الإنسان بعده
جوعاً أو عطشاً، ولا يعرف مرضًا أو حزناً.